قادة الفكر في الشرق والغرب

زرادشت الحكيم

نبي قدامى الإيرانيين

حياته وفلسفته

«١»

تأليف

حامد عبد القادر

المدير العام لشئون اللغة العربية
بوزارة التربية والتعليم (سابقاً)
وعضو مجمع اللغة العربية بالقاهرة

ملتزم الطبع والنشر
مكتبة نهضة مصر ومطبعتها
الفجالة - القاهرة

سلسلة قادة الفكر في الشرق والغرب

الكتاب الأول

زرادشت الحكيم

نبي قدامى الإيرانيين

حياته وفلسفته

تأليف

حامد عبد القادر

المدير العام لشئون اللغة العربية
بوزارة التربية والتعليم (سابقاً)
وعضو مجمع اللغة العربية بالقاهرة

ملتزم الطبع والنشر

مكتبة نهضة مصر ومطبعتها

بسم الله الرحمن الرحيم

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً مِنْ قَبْلِكَ ؛ مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ ، وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ .

صدق الله العظيم المؤمن : ٧٧ .

الفصل الأول

تقديم

بسم الله الرحمن الرحيم

« وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلاَّ خَلاَ فِيهَا نَذِيرٌ[1] »

« صدق الله العظيم »

وبعد فهذه قصة بطل من أبطال الشرق ، الذين جاهدوا فى سبيل الحق؛ إنها سيرة زرادشت بن پورشب ، الذى يسميه المحدثون من المؤرخين « نبى الإيرانيين القدماء » ، ويضفون عليه من صنوف الإجلال وضروب التقديس ما يكاد يسمو به إلى منزلة موسى وعيسى عليهما السلام. وتزعم بعض الأساطير أنه هو إبراهيم الخليل ، وأن الأبستاق — كتابه المقدس — هو ما يسميه القرآن الكريم « صحف إبراهيم » .

ولقد اختلف الرواة المحدثون فى رواية قصته ، كما اختلف الكتاب المؤلفون فى سرد سيرته ، حتى عميت علينا أنباؤه ، واضطربت أخباره . ولعل السبب فى ذلك هو أنه عاش فى أعماق الماضى البعيد ، وانتقل تاريخ حياته من السلف إلى الخلف على مر الأجيال المتلاحقة والقرون المتطاولة ، فكان كل جيل يضيف إلى قصته ما شاء أن يضيف ، حتى تضخمت أخباره ، واختلطت فيها الحقائق الواقعية بالأساطير الخيالية ، التى جرت عادة القصاص بأن يعزوها إلى العظماء ، حتى من كان منهم فى درجة الأنبياء .

---

(١) سورة فاطر — ٢٤ .

وهأنذا أقص قصة حياته فى جملتها وتفصيلها، مميزاً ما كان منها تاريخيا يكاد يرقى إلى درجة اليقين، مما هو أسطورى من نسج أخيلة المتحمسين.

وإنى أوثر أن أقدم إليك — أيها القارىء الكريم — ذلك النبي أو المصلح الاجتماعى العظيم فى أروع مواقف حياته، أو فى أشد حالة من حالات الضيق، الذى كثيراً ما كان يعانيه فى سبيل نشر رسالته.

انظر إليه! فها هو ذا يتراءى أمامك كأنه شبح روحانى، أو روح مجسدة، وما هو بشبح ولا بروح، وإنما هو إنسان، أضناه الكد، وأنهكه الجهد. يمشى متثاقلا كأنما يحمل أثقال الليالى والأيام، ويجر وراءه متاعب عشرة من الأعوام، قضاها فى شقاء وبؤس، يذرع ميديا وفارس، حافى القدمين، سارياً بالليل، سائراً بالنهار. لا هم له إلا أن يدعو إلى ربه، أبناء شعبه، الذين انغمسوا فى الوثنية، وضلوا سبيل الهداية الربانية، وشاع بينهم السلب والنهب، وتملكهم حب الاعتداء وسفك الدماء.

إن هذا الإنسان الذى يتمثل لك شبحاً، أو يتراءى لك روحا هو: زرادشت العظيم، المتوقد العزم، الثابت الجنان، القوى الإيمان: يقف — وقد ناهز على الأربعين — بائساً حزيناً، ضارعا مستكينا، كاسف البال، سيء الحال، يرفع أكف الضراعة إلى ربه «أهورامزدا»، إله النور والخير، وموئل الهداية والنصر.

إنه الآن — بمعزل من قومه وعشيرته — فى أحضان الصحراء، يرنو بنظره إلى السماء، يستصرخ رب الكائنات. وبارىء الأرض والسموات، ويتوسل إليه أن يلهمه الصبر، ويمنحه النصر، ويكشف عنه الضر.

استمع إليه يقول، فى صوت خافت حزين، صوت الضارع المستكين:

«أهورا! إلى أين أهرب؟ وإلى أى البلاد أذهب؟ إن النبلاء والعظماء

قد انصرفوا عنى ، ولم يستمع أحد من عامة الشعب إلى قولى ، حتى هؤلاء الأفاكون : حكام البلاد الدجالون . »

« مزدا ! أرشدنى ! كيف أحظى برضاك ؟ وكيف أظفر بهداك ؟ إنى أدرك السر فى خيبة آمالى ، وأعرف السبب فى فشلى فى مسعاى ؛ إنى رجل فقير ، فلم يستمع إلى إلا قليل . إياك أدعو إله الخير ! وإياك أستصرخ مبعث النور ! فامنحنى العون والتوفيق ، وأعنى كما يعين الصديق الصديق . أرشدنى إلى الطريق المستقيم ، المفضى إلى اكتساب التفكير السليم . »

« رب ! متى ينبثق فجر الهداية والفداء لهذا العالم ، خلال تعاليمك المفضية إلى النجاة ؟ أين هؤلاء الذين يمكن أن تمدهم هذه التعاليم بالسعادة ؟ »

« أهورا ! إنى أضع فيك كل ثقتى ، فكن أنت نفسك عونا لى على النجاح فى رسالتى ، وتنفيذ ما به أمرتنى . »

لقد مرت — من قبل هذا التضرع — على زرادشت الحكيم عشر سنين كان فيها نور الهداية إلى الحقيقة يضىء جوانب نفسه ، كما تضىء الشعلة المتقدة أرجاء الفضاء . وقد حفزه ذلك السراج الوهاج ، وحملته حرارة تلك الشعلة المتقدة على أن يطوف بإيران ، ويذرع أرضها طولا وعرضا ، فى حماسة وإخلاص ، ليذيع فى الناس التعاليم السامية ، التى كان على يقين أنها من وحى السماء .

وعلى الرغم من مرور هذه السنوات ، وتحمل تلك المشقات ، لم يأبه به أحد ، ولم يلب نداءه إنسان ، وذهبت صيحاته هباء فى الهواء ، وسقطت تعاليمه على قلوب الناس ، كما يسقط الماء على الصخور الصماء .

ويقف زرادشت على قمة السنوات العشر كما يقف الواقف على قمة جبل ، وينظر فلا يجد إلا صخوراً صامتة ، وأرضا جرداء بلقعا ، لا زرع

فيها ولا ضرع — فيدركه الأسى ، ويأخذ منه الأسف كل مأخذ . وينعى حظه العاثر ، ويحزن — فى مرارة نفس وضيق صدر — على ضياع تلك السنوات الطوال، من غير أن يصل إلى غرض ، أويحقق رغبة . ويدفعه أسفه وحزنه إلى أن يستصرخ ربه ، ويطلب منه المعونة والنجدة .

ولم يذهب تضرعه سدى ؛ فبينما هو فى بؤسه وشقائه بعد توسله إلى ربه ، إذا بالشمس تشرق فى كبد السماء ، وينظر إليها زرادشت فيراها مشرقة صافية الجوهر ، ترسل أشعتها الذهبية الباهرة فيملأ ضياؤها جميع الأنحاء ، ويصل دفؤها إلى جميع الناس على السواء ، لا تريد منهم جزاء ولا شكورا .

ويفكر زرادشت فى أم الكواكب ، فيرى فيها رمزاً لإله النور ، الذى يفيض طهراً وجلالا ، ونعمة وفضلا ، وتتسع نعمته فتعم المشرقين ، ويمتد فضله فيشمل الخافقين .

لقد مرت هذه الفكرة بخاطر زرادشت فأدرك فى ظلمات الفشل بارقة من أمل ، ولمح فى دجى القنوط قبساً من رجاء . وإذا بهاتف يناديه من صميم نفسه ؛ يدعوه إلى التشجع فى إيمان وثقة ، وإلى معاودة النشاط فى صبر وجلد ، فالليل لا بد أن يعقبه النهار ، والصبر لابد أن يتلوه النصر .

ويستمع زرادشت إلى هذا النداء ، وها هوذا يعود فيجوب أرض الله راجياً هداية عباد الله ، موقناً أن اليأس محنة يبتلى بها الأنبياء والمصلحون ، لا تلبث أن يقضى عليها الصبر وضبط النفس .

وقد تحقق الرجاء ؛ فما إن بدأت السنة التالية — وهى السنة الحادية عشرة بعد اجتلائه نور الحقيقة الإلهية — حتى بدت فى الأفق طلائع النجاح ؛ فها هو ذا ابن عمه ميتيوماه يلبى نداءه ، ويهب لنصرته ، ومساعدته فى نشر

دعوته . وكان زرادشت قد رأى رؤيا قبل ذلك بعشر سنوات ؛ تراءى له فيها ابن عمه هذا يقود جيشاً عرمرما ، ويحارب فى سبيل الحق ، وينتهى أمره بانتصاره على أعدائه .

ومن ثم يستأنف زرادشت دعوته ، مغتبطا بانضمام ابن عمه إليه ، ومتخذاً منه صديقا ، يؤيده فى نشر تعاليمه ، وموقنا أن حلمه سيتحقق كاملا ، عاجلا أو آجلا .

من هنا يبدأ النصر ، ثم يستمر حتى يدخل كشتاسب ملك إيران فى دين زرادشت ، ويتبعه جيشه ثم رعيته . وتتم زردشة إيران كلها ، ويدخل فى الزرادشتية كثير من أهل البلاد المجاورة لإيران — على النحو الذى سنشرحه بعد .

الفصل الثاني

الإيرانيون القدماء

١ ــ نشأتهم :

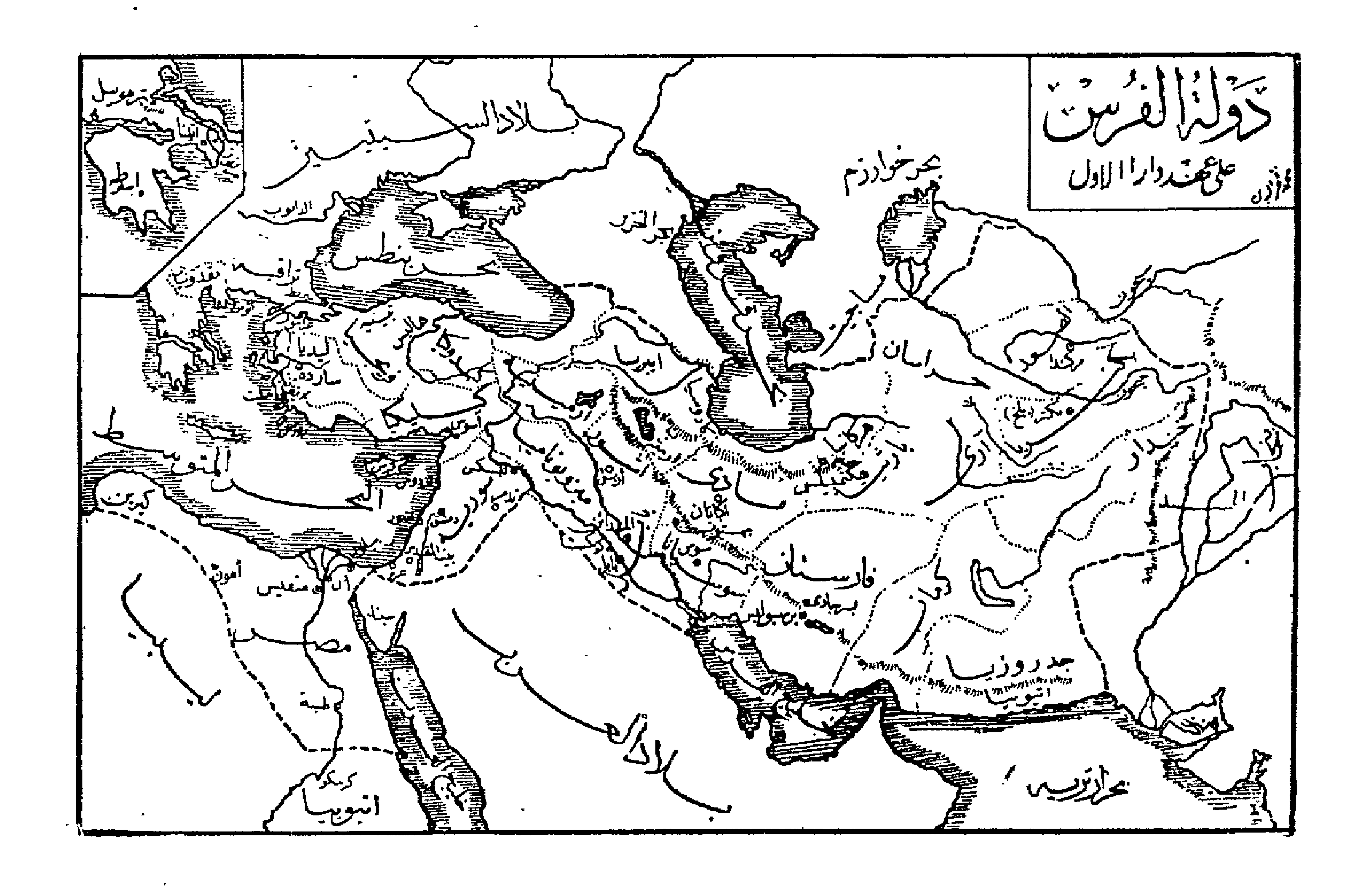
لكي ندرك تمام الإدراك السر في ظهور زرادشت وانتشار دعوته ، يجدر بنا أن نرجع إلى أعماق الماضي البعيد ؛ لنعرف ما كانت عليه حال إيران من النواحي السياسية والدينية والاجتماعية .

كان الإيرانيون من الشعوب الآرية التي كانت ــ قبل انقسامها إلى شعوب مختلفة ــ شعباً واحداً ، يقيم بسهول آسيا الشمالية الشرقية . وأوضح دليل على أن الإيرانيين من الشعوب الآرية ما أسفر عنه البحث الحديث من انحدار اللغات الهندية الأوربية من أصل لغوي واحد هو : لغة الآريين الأولين .

ولما ضاقت الأرض بهذا الشعب الواحد هاجر فريق منه إلى بلاد البنجاب وما وراءها . وهذا الفريق هم الهنود الذين انتشروا في الجزأين الجنوبي والشرقي من آسيا . وهاجر فريق آخر إلى ميديا وفارس . وهؤلاء هم الإيرانيون الذين انتشروا في الجزأين الشمالي والغربي من آسيا إلى حدود آشور وبابل .

ويروي خونيكوف Khonicoff المؤرخ الروسي ، مفصلا القول في هذا الموضوع :

أن الآريان أو الآريين ــ الأجداد الأولين للشعوب الهندية الأوربية ــ


دولة الفرس
على عهد دارا الاول
بحر خوارزم
بحر الخزر
بحر بنطس
البحر المتوسط
ليديا
ساردة
فارسستان
جدروزيا
اتيوبيا
مصر
منفيس
بلاد العرب
بحر اريتريه
برسبوليس
اثينا

كانوا يقيمون فى بقعة من الأرض فى الجزء الشمالى الغربى من إيران . ولما ضاقت بهم الأرض ، وأضناهم شظف العيش اضطروا إلى الهجرة من هذه البقعة إلى مكان آخر ، يتلمسون فيه أسباب العيش ؛ فانحدرت طائفة منهم نحو الجنوب ، وانتهى أمرهم بأن انقسموا ثلاث فرق . أما الفرقة الأولى فأقامت بسهول إيران . وأما الثانية فقد عبرت سهول إيران وتابعت سيرها نحو الشرق حتى وصلت إلى بلاد الهند . وأما الثالثة فقد عرجت فى طريقها على سهول هرات حيث طاب لها المقام .

ويؤخذ من هذين الرأيين ومن آراء أخرى أن الإيرانيين هاجروا إلى بلادهم التى أقاموا بها منذ القدم — ولا يزالون يقيمون بها حتى الآن — من إقليم بحر خوارزم ، سائرين من الشمال إلى الجنوب الغربى ، ومارين بحوض سيحون وجيحون ، تاركين من خلفهم وعن شمالهم قبائل هندية أوربية أخرى .

وقد كان من الطبيعى بعد أن تمت هذه الهجرات ، وبعد أن استقر كل فريق بموطنه الجديد أن ينشىء كل منهم مملكة ذات حدود ، يدافع عنها ويستغل مواردها ، وأن يتأثر — فى عقائده الدينية وتقاليده القومية — ببيئته الجديدة ، وأن يشيع بين أفراده مذهب دينى خاص .

ويقال إن إيران سميت كذلك باسم أحد ملوك البيشداديين ، وهو : إيران ، المعروف باسم « هوشنك » بن سيامك بن كيومرث : أول ملوك الدولة البيشدادية .

وأشهر الأقاليم التى قامت بها دول إيرانية : —

(١) إقليم ميديا أو مادى ، وهو الإقليم المعروف الآن باسم بلاد الجبل (= قهستان = كوهستان) أو العراق العجمى ، الواقع بين أصفهان وبحر قزوين .

وقد ظهر أمر الميديين فى منتصف القرن التاسع قبل الميلاد ، واتجهت أنظار الآشوريين إليهم ؛ فقد كانت لهم حينئذ مملكة عظيمة عاصمتها إكباتانا (= همذان الحالية) . ومن المرجح أن لغتهم كانت لهجة إيرانية تشبه الفارسية القديمة لغة الأبستاق .

ومن أشهر مقاطعات ميديا مقاطعة آذربيجان ، التى يرى معظم المؤرخين أنها موطن زرادشت الأول ومسقط رأسه ، وأن لغتها كانت لغته القومية التى كتب بها سفر الكاتاها أحد أسفار الأبستاق . وسنتحدث عن هذا الموضوع بشىء من التفصيل فيما بعد .

٢ — إقليم بختر (= الشرق) وهو مايسميه الفرنجة باكتيريا . ويقع فى الجزء الشمالى الشرقى من إيران ، وقد أسست به بعض القبائل الإيرانية القديمة مملكة عظيمة جعلوا عاصمتها بلخ .

ويروى الفردوسى وغيره ممن سبقه من مؤرخى العرب والفرس أن يشتاسب أو كشتاسب بن لهراسب الذى آمن بالزرادشتية كان خامس ملوك الدولة الكيانية ، التى حكمت إيران بعد الدولة البيشدادية ، وجعلت بلخ عاصمة ملكها ، وكان ترتيب ملوكها فى الجلوس على عرش الدولة على النحو الآتى :

اسم الملك	مدة حكمه	
١ — كيقباذ	١٠٠ أو ١٢٦ سنة	
٢ — كيكاوس - قابوس	١٥٠	»
٣ — كيخسرو (كورش ؟)	٨٠	»
٤ — كى لهراسب	١٢٠	»
٥ — كى يشتاسب = كشتاسب	١٢٠	»
٦ — كى بهمن بن اسفنديار بن كشتاسب	١١٢	»
٧ — خمانى جهرازاد (امرأة) [1]	٣٠	»

(١) هى بنت بهمن بن اسفنديار بن كشتاسب .

اسم الملك		مدة حكمة
٨ — دارا (داراب) بن بهمن	١٢	سنة
٩ — دارا الثانى بن دارا الأول	١٤	«
١٠ — ثم فتح الإسكندر البلاد وحكمها	١٤	«

ويؤخذ مما رواه الطبرى والمسعودى وابن الأثير ، من مؤرخى العرب من أخبار لهراسب أن كيخسروبن سياوخش بن كيكاووس (قابوس) لما حضرته الوفاة ولم يكن له عقب عهد بالملك إلى ابن عمه لهراسب بن كيوخى ابن كيكاووس .

وأنه لما عقد التاج على رأسه قال : نحن مؤثرون للبر على غيره ، وأنه اتخذ سريراً من ذهب مكللا بأنواع الجواهر للجلوس عليه ، وأمر فبنيت له بأرض خراسان مدينة « بلخ » ، وسماها « الحسناء » ؛ لما فيها من المياه والشجر والمروج . ودون الدواوين ، وقوى ملكه باتخاذه الجنود لنفسه ، وعمر الأرض ، وأجبى الخراج لأرزاق الجنود ، وحمل إليه الخراج ملوك الهند والروم والمغرب ، وكاتبوه بالتمليك ، هيبة له ، وحذرا منه .

وقد يكون من المفيد أن نذكر بهذه المناسبة أن بختنصر الكلدانى أو البابلى الذى يسمى بالفارسية كما قيل « بخترشه » (= ملك الشرق) — كان — بإجماع مؤرخى العرب — مرزبانا من قبل لهراسب هذا لأقليم عظيم كان يمتد من الأهواز إلى أرض الروم ، ولم يكن ملكا كما يزعم بعض المؤرخين .

---

(١) تاريخ الطبرى ١ — ٢٨٠ ، ومروج الذهب المطبوع على هامش نفح الطيب ١ — ٢٨٤ ، وتاريخ ابن الأثير ١ — ١٠٠ .

ويقول المسعودى فى كتابه مروج الذهب .

« قد ذكر كثير ممن عنوا بأخبار الفرس أن البختنصر مرزبان العراق والمغرب كان من قبل هذا الملك (لهراسب) ، وهو الذى . . . فتح بيت المقدس ، وسبى بنى إسرائيل . وأكثر الاخباريين والقصاص يغالون فى أخباره ، ويبالغون فى وصفه . والمنجمون فى زيجاتهم ، وأهل التواريخ فى كتبهم يجعلونه ملكا ، وإنما كان مرزبانا على ما وصفنا للملوك ممن ذكرنا . وتفسير مرزبان يراد به صاحب ربع من المملكة ، وصاحب ناحية وواليها ـ وقد كان حمل سبايا بنى إسرائيل إلى الشرق [1] » .

وكان لهراسب — كما يروى الطبرى وابن الأثير ـ محموداً عند أهل مملكته ، شديد القمع لأعدائه المجاورين له ، شديد التفقد لأصحابه ، بعيد الهمة ، عظيم البنيان ، شق كثيراً من الأنهار .

واشتدت شوكة الترك (= الطورانيين) فى زمانه ، فنزل مدينة بلخ الحسناء لقتالهم .

ثم إنه تنسك وفارق الملك ، واشتغل بالعبادة ، واستخلف ابنه يشتاسب (= كشتاسب = كشتاسف) . وكانت مدة حكمه ١٢٠ سنه [2] ؟

ويروى هؤلاء المؤرخون من أخبار يشتاسب هذا : —

(١) أنه لما عقد له التاج قال يوم ملك : « نحن صارفون فكرنا وعلمنا وعملنا إلى كل ماينال به الخير » :

---

(١) مروج الذهب المطبوع على هامش كتاب نفح الطيب للمقرى ١ـ٢٨٤ .

(٢) اختلف الناس فى هذه السنين فنهم من يرى أنها سنوات كاملة كما نحسبها نحن الآن . ومنهم من يرى أن السنة فى نظر القدماء تساوى شهرا فى حسابنا الآن . وممن رووا هذا الرأى أبو العلاء المعرى حيث يقول :

ورووا للمعمرين أمورا	لست أدرى ماهن فى المشهور
أتراهم فيما تقضى من الأيـ	ام عدوا سنيهم بالشهور
كلما لاح للعيون هـلال	كان عاما لديهم فى الدهور

(٢) وأنه ابتنى بفارس مدينه نسا ، وضبط الملك ، وقرر قوانينه . ورتب سبعة من عظماء أهل مملكته مراتب ، وملك كل واحد منهم مملكة على قدر مرتبته .

(٣) وأنه هادن ملك الترك خرزاسف (أرجاسب) أخا أفراسياب ، ثم نقضت شروط الهدنة ووقعت بين الفريقين حروب طاحنة انتصر فيها الإيرانيون أولا ، ثم انتصر الترك ، ثم انتصر الإيرانيون كما سنذكر فيما بعد .

(٤) أن زرادشت بن إسبتمان ظهر بعد ثلاثين سنة من ملك يشتاسب فادعى النبوة . وأراده على قبول دينه فامتنع من ذلك ، ثم صدقه ، وقبل مادعاه إليه وأتى به من كتاب أدعاه وحيا .

وابتنى ببلاد فارس والهند وغيرها بيوتا للنار ، ووكل بها الهوابذة .

(٥) أن ملك يشتاسب إلى أن تمجس ثم هلك كان عشرين ومائة سنة ؟

(٦) أن مدة نبوة زرادشت فيهم كانت ـ كما يقول المسعودى ـ خمسا وثلاثين سنة ، وأنه هلك وهو ابن سبع وسبعين .

ويؤخذ مما سبق أن مؤرخى العرب يرون أن دارا الأول من نسل كشتاسب الذى آمن بزرادشت وظاهره على نشر دينه .

ولكن مؤرخى الفرنجة يرون ـ مستندين إلى وثائق وروايات تاريخية ، وإلى أسباب تتصل بتاريخ نشر الزرادشتية نفسها ـ أن كشتاسب والد دارا الأول غير كشتاسب بن لهراسب الذى ظهر فى عهده زرادشت ، ويعزون هذا الخلط إلى تشابه الاسمين .

٣ — إقليم فارس (= پارس = فارسستان) . وهو البقعة الجبلية المشرفة على الخليج الفارسى الواقعة جنوبى ميديا .

ويقال إن هذا الإقليم سمى كذلك باسم پارس بن هوشنك ، أحد الملوك

البيشداديين ؛ ذلك أن هذا الملك لما جلس على سرير ملك إيران أطلق اسمه على القسم الجنوبي من إيران. فمنذ ذلك العهد أطلق على هذا الإقليم اسم پارس ، الذي جعله العرب فارس ، ورسمه الفرنجة بصور مختلفة .

وقد كان من التقاليد التي اتبعها الإيرانيون حتى القرنين الثالث والرابع بعد الميلاد أن يطلقوا على الأماكن أسماء الأشخاص أو الحيوان، وذلك نحو ما ذكرنا من إطلاق إيران وپارس على المقاطعتين المذكورتين، وكذلك إطلاق اسم أردبيل على المدينة المعروفة ؛ فإن « أرد » معناها بالفارسية « غضب » « وبيل » معناها فيل .

ومعنى « پارس » بالفارسية التقوى أو الورع أو العدل ، والنسبة إليها « پارسي » . وپارسا معناها التقي أو العادل ، وجمعها پارسايان ؛ ومن ثم يسمى أهل إيران پارسايان أي الأتقياء أو العادلين .

ويفخر الفرس بهذه التسمية ، ويعللونها بانتشار العدل والتقوى في بلادهم . ويذكرون في تأييد ذلك أن الرسول عليه الصلاة والسلام قال : ولدت في زمن أنوشروان العادل . وأنه قال حين سئل عن السر في بقاء مملكة الفرس في أمن وسلام ورخاء زمنا طويلا دون أن تتحول أو تتبدل : لأنهم عمروا البلاد وعدلوا في العباد .

ويروون أنه صلى الله عليه وسلم قال : إن لله خيرتين من خلقه ؛ من العرب قريشا ومن العجم الفرس . وأنه في وقت ما ناجى الله وابتهل إليه بالفارسية . وأنه تكلم بهذه اللغة ذات يوم أمام سلمان الفارسي ، الذي قيل إن الرسول قال في حقه — تعظيما لقدره : سلمان منا أهل البيت : كما يقولون في تمجيد الفارسية إنه عليه الصلاة والسلام قال : لسان أهل الجنة العربية والفارسية الدرية .[1] أي الفارسية الرسمية التي كانت لها بين اللهجات الفارسية منزلة لغة قريش بين اللهجات العربية .

---

(١) راجع كتاب : « زردشت باستاني وفلسفة أو » تأليف حاجي ميرزا عبد الحمد خان ص ١٦ — ١٨ .

نعود فنقول إنه كان لإقليم فارس شأن عظيم حينما اتجهت أنظار مؤرخى الإغريق إلى إيران ، ولذا أطلقوا على البلاد كلها اسم هذا الإقليم ، وعنهم أخذ العرب وغيرهم فسموها بلاد الفرس ، وظلت تسمى كذلك إلى أن سميت فى العصر الحديث باسمها القديم إيران . وهذا نفسه هو السبب فى أن مؤرخى الإغريق يجعلون بداية تاريخ الفرس قيام الدولة الهخامنشية بإقليم فارس ، ولا يعتدون بالدولتين السابقتين البيشدادية والكيانية ، بل يعدون ما يروى عنهما من قبيل الأساطير التى لا تستند إلى أسس تاريخية . ويقولون إن إقليم فارس لم يظهر أمره فى التاريخ إلا فى عهد كورش الأكبر (٥٥٨ — ٥٣٠ ق م) الذى أخضع الميديين سنة ٥٤٦ ق م ، واستولى على بابل وتوابعها سنة ٥٣٨ ق م ، وفك أسر اليهود ، وسمح لهم بالعودة إلى بلادهم ، وكان بختنصر الكلدانى قد حملهم أسرى إلى بابل بعد تخريب أورشليم وهدم الهيكل الأول سنة ٥٨٦ ق م .

وكورش هذا هو الملقب بكيخسرو ، وهو ابن كيكاؤس أو قابوس بن شيامك . ويعزى إلى كورش أنه هو مؤسس الدولة الهاخمينية (نسبة إلى هاخمين أو هاكمين جدهم الأكبر) وجعل بيرسيس أو بيرسبوليس عاصمة ملكها .

وتولى الملك بعد كورش ابنه قمبيز فاتح مصر سنة ٥٢٥ ق م ، ثم دارا الأول (٥٢٥ - ٤٨٥ أو ٤٧٩ ق م) ، وقد تولى الملك بالانتخاب . وفى عهده توحدت الإمبراطورية الإيرانية ، وصارت الزرادشتية دينها الرسمى . وقد سجل دارا انتصاراته فى نقش يسمى نقش بهيستون ، وهى صخرة عظيمة على ثلاثين ميلا من كرمانشاه ، على الطريق الرئيسى إلى خراسان ، ويبلغ ارتفاعها نحو ٤٥٦ متر .

وما عليها من نقوش قسمان أحدهما : صور تمثل انتصار الملك ، وخضوع

الملوك الآخرين وجنودهم له ، والآخر عبارات كتبت بالخط المسماري بثلاث لغات هي : الفارسية القديمة ، والكلدانية أو الآرامية ، والميدية .

وفيما يلي ترجمة جزء من هذا النص :

« يقول دارا الملك : هذا هو ماتم على يدي ببابل . يقول دارا الملك : هذا هو ما فعلت بفضل أهورا مزدا ، في السنة نفسها التي توليت فيها الملك ، واشتركت في تسع عشرة حرباً ، بفضل أهورا مزدا اشتركت في هذه الحروب ، وأخضعت تسعة ملوك ، كان منهم ملك اسمه كوماتا مجوسي كذب وقال أنا بارديا بن كورش ، وأثار أهل فارس علي . وكان منهم نيوديتو بعل بابل ، كذب وقال أنا بختنصر بن نابونائيد ، وأثار أهل بابل علي » .

« يقول دارا الملك : أخضعت هؤلاء الملوك التسعة في أثناء تلك الحروب . يقول دارا الملك : هذه هي الأقاليم التي ثارت ، وكان الكذب هو الذي جعلها تثور . وكذلك كان هؤلاء الملوك هم الذين خدعوا الشعوب ، ثم أسلمهم أهورا مزدا إلى يدي ففعلت بهم ما أردت »[1] .

وقبض على زمام الملك بفارس بعد دارا الأول ملوك كانت لهم منزلة ثانوية هم أخشرسيس أو زركيس ، ثم ارتخشيارش الأول ، ثم دارا الثاني ، ثم ارتخشيارش الثاني ، ثم ارتخشيارش الثالث ، ثم دارا الثالث الذي في عهده سقطت إيران في يد الإسكندر الأكبر المقدوني سنة ٣٣٠ ق . م .

٤ — وكان الطورانيون سكان طورانيا يجاورون الإيرانيين من الجهة الشمالية الشرقية . والطورانيون فريق من التتار أو الأتراك كانوا يقيمون بالأقليم المعروف الآن بالتركستان ، وكانوا ألد أعداء الإيرانيين . وكثيراً ما قامت بين الفريقين حروب دامية ، وبخاصة في عهد كشتاسب وزرادشت كما سنرى بعد .

(١) راجع كتاب قصة الأدب الفارسي للمؤلف ص ٢٨ — ٢٩ .

الفصل الثالث

الإيرانيون القدماء

ب — حالتهم الدينية

إن من يتتبع تاريخ الجماعات الإنسانية الأولى يجد أنها كانت دائماً تتفاعل هي والبيئة الطبيعية المحيطة بها؛ تؤثر فيها، وتتأثر بها؛ تؤثر فيما يمكنها التأثير فيه والسيطرة عليه، كالحيوانات الأليفة، والأرض وما عليها من جبال ومروج وسهول، وأنهار ووديان، والبحر وما فيه من سمك ولؤلؤ ومرجان. وتتأثر بما لا يمكنها التأثير فيه ولا السيطرة عليه؛ كالزلازل والبراكين في الأرض، والرعد والبرق في السماء؛ وكذلك الشمس والقمر وغيرهما من الكواكب والنجوم.

فأما ما استطاع الناس التأثير فيه والسيطرة عليه فقد استغلوه إلى أقصى حد ممكن، في حدود طاقتهم، ومعارفهم، واستعداداتهم. فاستخدموا الحيوانات الأليفة في أغراض شتى أشار إليها الله تعالى بقوله: « والأنعام خلقها لكم فيها دفء ومنافع — الآيات »[1]

واستخدموا الأرض في أغراض أخرى أشار إليها الله عز وجل في عدة آيات من القرآن الكريم. واستخدموا البحر في الحصول على منافع لخصها القرآن الكريم في قوله تعالى: « وهو الذي سخر البحر لتأكلوا منه لحماً طريا — الآيات »[2].

وأما ما لم يستطيعوا التأثير فيه ولا السيطرة عليه بله إدراك أسراره

---

(١) النحل: ٥ — ٨ ؟ (٢) النحل: ١٤ •

من الكائنات فقد وقفوا حياله حائرين مبهوتين ، وظلوا يتأملونه ويفكرون فيه ، فما أدركوا أسراره اطمأنوا إليه ، وما خفيت عليهم أموره أعظموا قدره إذا كان نافعاً ؛ كالشمس والقمر ، وخشوا بأسه وثورة غضبه إن كان مؤذيا أو مزعجاً ؛ كالزلازل ، والبراكين ، والعواصف ، والرعد والبرق .

ومن ثم نشأ التأليه أو اعتقاد الألوهية فى هذه العناصر الطبيعية العاتية الجبارة ، العظيمة القدرة ، الشديدة البأس .

وقد نشأ عن التأليه : العبادة ، وتقديم القرابين ؛ أى عبادة تلك العناصر النافعة تقرباً إليها ، ورغبة فى استمرار نفعها ، وتقديم القرابين للعناصر الشريرة ، أو المزعجة لتهدئة ثورتها ، والتخفيف من حدة غضبها ، واتقاء شرها ، واستدرار عطفها .

والغالب أنه كلما زاد الرخاء وكثرت الخيرات والنعم وجد التفاؤل ، وقضى الإنسان بعض أوقات فراغه فى التأمل والبحث فى أسرار الكون ، ومنشأ الرخاء والنعمة . ومن ثم ينشأ التفلسف ، وهل التفلسف إلا ترف عقلى يتبع فى الغالب الترف المادى؟

وقد يؤدى التفلسف إلى استهجان الحياة المادية ، وازدراء الانغماس فى الشهوات البهيمية ، والغلو فى الاستمتاع بالملذات الحسية ، ومن ثم تنشأ الفلسفة التقشفية ، التى تدعو إلى الزهد فى حطام الدنيا الحائل ، ونعيمها المادى الزائل . وقد يؤدى الغلو فى فلسفة الزهد إلى التفكير فى إذلال النفس ، وتعذيبها حتى تكف عن شهواتها .

وكلما قل الرخاء ، وشظف العيش ، وكثرت متاعب الحياة ، وازدادت مشقاتها وجد التشاؤم ، وشاع الاعتقاد بوجود قوى شريرة تعمل على إذلال الإنسان ، وتعكير صفو حياته .

لذلك نرى أن الفريق الهندى من الآريين الذين حظوا بنعيم الحياة، ورخاء العيش فى الهندوستان، البلاد الخصبة المثمرة — نراهم يقابلون هذه النعم بالتفكير فيها وفى منشئها، وبالنظر فى الأمور الإلهية، وبالتقرب إلى تلك القوى المنعمة بممارسة الزهد والتقشف، الذى تقوم عليه الديانة البراهمية.

هذا فى حين أن الفريق الآخر — وهم الإيرانيون — قد وجدوا أن خير وسيلة للتغلب على القوى الشريرة هى الجهاد فى سبيل الحياة، والسعى فى طلب الرزق، والتغلب على شظف العيش، وعلى ما فى الحياة فى بلادهم المشقية من شدائد ومشقات؛ ذلك لأن استغلال أرضهم لم يكن هينا، ولم تكن حياتهم فى بلادهم حياة سعادة ورخاء، كما كانت الحال لدى الهنود جيرانهم. ولما كانت حياتهم حياة جهاد ضد الشقاء والبؤس فقد كان من بين مبادئهم الدينية إعلان حرب شعواء لا هوادة فيها على قوى الشر والظلام، لتتغلب عليها قوى الخير والنور — وهذا هو أحد الأسس التى قامت عليها الديانة الزرادشتية.

وقد شاع فى إيران قبل ظهور زرادشت الاعتقاد بألوهية ميثرا، وييما، وآشا.

وقد ظل تقديس مترا شائعاً بين الإيرانيين حتى بعد ظهور زرادشت؛ فقد ورد فى بعض أسفار الأبستاق — كتاب زرادشت المقدس — أن ميثرا يوصف بأنه الحارس للمراعى، اليقظ، الذى لا تأخذه سنة ولا نوم، وبأنه المنعم المتفضل الذى يهب المراعى لمن يشاء بمحض إرادته، ولا يؤذى من يقوم على فلح الأرض واستغلالها، وبأنه الإله القادر العالم الذى لا يخدع أحداً.»

وهذه بالطبع بقية من بقايا الإشراك الذى شاع بين قدماء الآريين .

وأما يما فقد كان قدماء الإيرانيين يعتقدون أنه الحاكم المسيطر فى الحياة الأخرى .

وأما آشا فكانوا يعتقدون أنه القابض على ناصية الأرض ، المتصرف فى شئونها .

ويؤخذ من هذا أن العقيدة الزرادشتية قد تأثرت إلى حد ما بما سبقها من الأديان التى ظهر أمرها فى إيران القديمة .

وإننا نجد مزيد بيان لهذا الموضوع فى دائرة المعارف البريطانية ، حيث تقول ما ترجمته بشىء من التصرف[1] .

« لقد أتى زرادشت بدين جديد ، وليس معنى ذلك أن كل ما أتى به من ابتكاراته الخاصة ، وأنه لم يتأثر بما سبقه من العقائد الوثنية الإيرانية القديمة ؛ فالحق أن لعقيدته أساساً فى الديانة القومية الآرية أو الإيرانية القديمة ، التى يمكن أن نعرفها على وجه التقريب بالنظر فى الديانات الهندية » .

« وقد ألقت النقوش الحيثية التى كشفت حديثا نورا على العقيدة الدينية الإيرانية القديمة ؛ فقد وردفيها أن ميترا ، وفرونا ، وإندرا ، وناسايتا أسماء لآلهة كان يقدسها الملوك حوالى القرن الرابع عشر قبل الميلاد . » .

« وكان هؤلاء القدماء يقدسون بعض العناصر الطبيعية كالنار ، ويعبدون عدة آلهة شاع أمرها بينهم . كإله الحرب ، والإله مبيد الوحش ، كما كانوا يعتقدون بوجود قوى روحانية خلقية تسيطر على الناس ، وبوجود مبدأ أزلى أبدى يسيطر على الطبيعة . وفى بعض الأحداث الهامة كان المتدينون

---

(١) ص ١٠٣٩ ج ٢٨ من الطبعة الحادية عشرة .

يسقون الكأس الملهمة سوما أو « هاؤوما » التي سنسمع عنها عند الحديث عن الزرادشتية . »

« على أننا نجد مع ذلك أن بعض التعاليم الهندية الدينية تخالف تمام المخالفة نظائرها في الديانة الزرادشتية ، منها أن الأبستاق يسمي قوى الشر « دو إيفا » ، وهو الاسم الذي اشتق منه كلمة « ديو » المستعمله في الفارسية الحديثة بمعنى « شيطان » في حين أن اسم « دا إيفا » يطلق لدى قدماء الهنود الآريين على قوى الخير أو أرواح النور ، وأن عناصر الشر أو أرواحه تسمى لدى الهنود أسورا ، في حين أن اسما يشبهه وهو أهورا يطلق في الديانة الزرادشتية على إله الخير والنور .

ولعل السبب في هذا الاختلاف هو أن أسورا ، ودا إيفا كانا في أول الأمر يمثلان شخصيتين إلهيتين ، وكان الأول وهو أسورا يدل على شخصية رفيعة القدر تنطوي على عنصر مزعج ؛ ولذا كان القدامى يوقرونه ، وفي الوقت نفسه يخافونه ويخشون بأسه . أما الآخر وهو دا إيفا فكان يمثل الحنو والشفقة والنور ، وينظر إليه كأنه مزود بنزعات شهوانية مادية ، وأنه يشبه الإنسان في ذلك . »

«فعلى مر الزمن ، صار أسورا (أو ڤارونا — كما كان يسميه قدماء الآريين) رمزا للشر والإيذاء لدى الهنود ، وصار لدى زرادشت وأتباعه رمزا لشخصية مقدسة توصف بالحكمة (مزداؤو) ، ولذا سموا إلههم : «أهورا مزدا» أي الإله الحكيم . ثم سموه فيما بعد: أرمزد . وهو الكائن الروحاني الأول ، أبو الجميع ، الذي وجد قبل أن يوجد العالم ، وعنه فاض هذا العالم أو نشأ . ورائده في تصرفاته بصيرته أو عينه البعيدة النظر . والروح الموجه له هو روح القدس الذي يريد الخير »

وكان عامة الشعب يعتقدون أن لهرمزعدوا لدودا هو روح الشر أنكره مينو . أو انجرو مينيوس أهرمن .

والخلاصة أن العقيدة الزرادشتية قد تأثرت فى بعض نواحيها بما سبقها من العقائد الآرية والإيرانية القديمة . وأن عامة الإيرانيين القدماء كانوا مشركين يعبدون عدة آلهة .

هذا إلى أنه قد شاع بينهم الفساد . وبخاصة سكان البدو ؛ فقد كان بعضهم يعتدى على بعض بالسلب والنهب وإزهاق الأرواح .

وجاء زرادشت فأحس فى قرارة نفسه استنكارا شديداً لهذه الحياة الدينية والاجتماعية الفاسدة . وهب بوحى من أهورامزدا يدعو شعبه إلى اتباع الطريق المستقيم . طريق الخير والنور . ويرشدهم إلى النشاط والجد فى العمل . والاستمساك بما تقضى به الحياة من الشعور بالمسئولية وتحمل التبعات .

الفصل الرابع

تعريف بزرادشت

١ ـ اسمه ونسبه :

إن لزرادشت عدة أسماء منها : زردشت ، وزرتشت ، وزرادهشت ، وزرادشترا ، وما يقرب من اثنى عشر اسما غير هذه الأسماء .

ويذكر فى الأبستاق باسم زرادسترا أو اسبيتاما زرادسترا . ويسميه الفرنجة زرواستر . أخذا من اسمه فى اللاتينية وهو Zoroastres . ويغلب فى الفهلوية أن يسمى زراتشت، وفى الفارسية الحديثة أن يسمى زردشت. ويسميه ابن النديم : زرادشت بن اسبتمان[١].

واسمه الكامل ، فى رأى صاحب كتاب : زردشت باستانى وفلسفة أو هوشَت[٢] أشو زَرْدَشْتْ .

وقد اختلفتْ الروايات فى بيان معنى هذا الاسم على اختلاف صوره . ويرجح صاحب الكتاب الآنف ذكره[٣] أن اسبيتما spitama اسم جد من أجداد زرادشت ، وأن معناه « الأبيض » ومنه « سفيد » المستعملة فى الفارسية الحديثة بمعنى أبيض . ويقول المؤلف نفسه إن زرداشترا مركب من كلمتين الأولى « زرد » ومعناها : أصفر ، أو غضب أو سريع ، والثانية

---

(١) الفهرست : ص ١٩ .

(٢) شت = حضرة = سيادة ، أشو « سماوى » ، ربانى . فمعنى شت أشو حضرة الحكيم الربانى .

(٣) ص : ٤٩ .

« اشترا » ومعناها جمل. وهى تساوى كلمة « شتر » المستعملة بهذا المعنى فى الفارسية الحديثة. فمعنى الاسم المركب: صاحب الجمل الأصفر أو الغضبان أو السريع:

واختلفت الروايات أيضا فى تحديد اسم أبى زرادشت ونسبه: وأشهر هذه الروايات أن زرادشت ينتمى إلى الأسرة البيشدادية التى كان منها ملوك إيران فى العصور القديمة، وأن أباه — المسمى فى الأبستاق بوراشاسب Pourashaspo أو بورشب — من نسل فريدون أحد ملوك تلك الأسرة.

أما اسم أبيه فهو كما ورد فى الأبستاق — دغدهوا Dughd huova وهو بالفهلوية دُغدَوُو Doghdavo، وبالفارسية الحديثة دغدُويَه. واسم جده هو — كما ورد فى الأبستاق أيضا — هاثيكات أسبا Haicat Aspa ويؤخذ مما ورد فى الكتب الزرادشتية: بندهشن Bundahishn، وزات سبارم Zat-sparm، وويجر كارت دينيج Wijarkart Dinig أن نسب بورشب أبى زرادشت يرجع إلى منوجهر بن ايرج بن فريدون الجد الخامس عشر[1] لزرادشت، وأن دغدويه أم زرادشت يرجع نسبها إلى فريدون أيضا، وأنها هى وأبوه قد انحدرا من أصلاب وأرحام طاهرة.

ب — تاريخ مولده: —

لقد اختلف المؤرخون من القدامى والمحدثين فى أمر زرادشت، ولهم فى ذلك عدة آراء:

الأول: رأى من ينكرون وجوده، ويعدون كل ما ورد عنه من القصص والنوادر من قبيل الخرافات والأساطير التى لا سند لها إلا الخيال.

---

(١) ص: ٥٦ من المرجع نفسه.

وهذا رأى قد دلت الكشوف الحديثة على بطلانه ، ولم يعد أحد من المؤرخين المحدثين يعتد به .

الثانى : رأى من يقولون إن زرادشت شخصية تاريخية واقعية لا سبيل إلى إنكار وجوده .

ومن أصحاب هذا الرأى من مؤرخى اليونان أفلاطون الذى يسميه ابن أور مازديس Olrmazdes أرمزد ، ويتحدث عنه بلينى الكبير ، ويذكر أنه ضحك فى اليوم نفسه الذى ولد فيه ، ويذكره بلوتارك فيتحدث عن كلامه مع الرب [١] .

وقد اختلف أصحاب هذا الرأى فى تحديد الزمن الذى ظهر فيه زرادشت فمنهم :

ا — من جعل زمن ظهوره بدأ القرن السادس قبل البلاد . ومنهم :

ب — من جعله حوالى سنة ١٠٠٠ ق م . ومنهم :

حـ — من أوصله إلى القرن الستين قبل الميلاد .

ويذكر أصحاب الرأى الثانى فى تأييد ما ذهبوا إليه :

أولا : أن دارا الأول (٥٢١ — ٤٨٥ أو ٤٧٩ ق م) كان من أشهر ملوك الأسرة الخاخمنشية تحمسا للزرادشتية ، يتضح ذلك من نقش بهيستون الذى ترجمنا بعضه فيما سبق .

ثانيا : أنه يستفاد من بعض النقوش الأشورية أن الزرادشتية شاعت فى ميديا قبل كورش (٥٥٨ — ٥٣٠ د ق م) بنحو قرنين ، أى حوالى سنة ٧١٤ ق م ؛ بدليل أن اثنين من أمراء الميديين كان يسمى كل منهما باسم « مزداكا » ، وهو اسم مشتق من مزدا الذى أطلقه زرادشت على الإله .

---

(١) راجع ص ١٠٣٩ جـ ٢٨ من الطبعة الحادية عشرة من دائرة المعارف البريطانية .

ومن يسمى نفسه بهذا الاسم يعترف ضمنيا بأنه من أتباع زرادشت، الذين كانوا يسمون أنفسهم « المزدايسنيين » Mazdayasn . فإذا كانت الزرادشتية قد شاع أمرها حوالى ٧١٤ ق م فمن المؤكد أن يكون ظهورها فى أول أمرها قبل ذلك بعدة قرون أى حوالى سنة ١٠٠٠ ق م .

أما أصحاب الرأى الأول، وهم معظم المحدثين من المؤرخين فيرون — استناداً إلى أدلة تاريخية تكاد تكون يقينية — أنه من المرجح جداً أن يكون ظهور زرادشت بعد سنة ١٠٠٠ ق م بأربعة قرون على الأقل . وفى مقدمة أصحاب هذا الرأى دار ميستيتر Darmesteter وهوارت Huart ، من الفرنسيين، وويست[١] West من الإنجليز ، وجاكسون[٢] Jachson الأمريكى، ومن أشهر أتباعهم الأستاذ براون[٣] الإنجليزى .

وخلاصة هذا الرأى أن أمر زرادشت قد ذاع وازدهر فى النصف الثانى من القرن السابع قبل الميلاد، أى فى عصر الميديين قبل ظهور الدولة الخاخمنشية، وأنه ولد حوالى سنة ٦٦٠ ق م، وتوفى حوالى سنة ٥٨٣ ق وعمره ٧٧ سنة .

---

(١) قد أوضح ويست رأيه هذا فى الجزء الرابع من كتابه « ترجمة نصوص فهلوية » ، المطبوع سنة ١٩٠١ م مستنداً فى ذلك إلى ما ورد فى كتاب البدهشن وغيره من المؤلفات الزرادشتية المتأخرة .

(٢) وليام جاكسون الأستاذ بجامعة كولومبيا بنيويورك ، وقد شرح رأيه فى كتابه : « زرادشت نبى قدماء الإيرانيين » الذى طبع فى نيويورك سنة ١٨٩٩ م .

(٣) راجع كتابه « تاريخ فارس الأدبى » ص ٣٠ ج ١ .

ب — مسقط رأسه :

لم يختلف المؤرخون المقرون بوجود زرادست فى مكان مولده كما اختلفوا فى زمانه.

ويرى الطبرى وابن الأثير وغيرهما من مؤرخى العرب أن زرادشت كان — «فيما يزعم أهل الكتاب (اليهود) — من أهل فلسطين، يخدم بعض تلامذة أرمياء النبي خاصاً به، فخانه وكذب عليه، فدعا عليه فبرص، ولحق ببلاد أذربيجان، وشرع بها دين المجوس، وصنف كتاباً، وطاف به الأرض فما عرف أحد معناه، وزعم أن لغته سماوية خوطب بها، وسماه «أبشتا» فسار به من أذربيجان إلى فارس. فلم يعرفوا ما فيه ولم يقبلوه، فسار إلى الهند، وعرضه على ملوكها، ثم إلى الصين والترك فلم يقبله أحد، وأخرجوه من بلادهم. وقصد فرغانة فأراد ملكها أن يقتله فهرب منها.

«ثم إن يشتاسب أحضر زرادشت وهو ببلخ، فلما قدم عليه شرح له دينه فأعجبه، واتبعه، وقهر الناس على اتباعه، وقتل منهم خلقاً كثيراً حتى قبلوه ودانوا به».

«وأما المجوس فيزعمون أنه «إيرانى» وأنه من أذربيجان، وأنه نزل على الملك كشتاسب من سقف إيوانه وبيده كبة من نار يلعب بها ولا تحرقه، وكل من أخذها من يده لم تحرقه، وأنه اتبعه الملك، ودان بدينه، وبنى بيوت النار فى البلاد، وأشعل من تلك «الكبة النارية» النار فى بيوت النيران.

ويزعمون أن النيران التى فى بيوت عبادتهم من تلك النار إلى الآن. وكذبوا فإن النار التى كانت للمجوس أطفئت فى جميع البيوت لما بعث الله محمداً صلى الله عليه وسلم».

أما الرأى الذى نقل عن بعض أهل الكتاب فلا يعتد به الآن أحد من المؤرخين المحدثين . وأما رأى « المجوس » فهو أرجح الآراء وأقربها إلى الصواب .

ويكاد يكون من المتفق عليه الآن أن زرادشت ميدى الأصل ، ولد بمقاطعة أتروپاتين Atropantene (أى أذربيجان الحالية) ، إحدى مقاطعات ميديا ، على مقربة من بحيرة أورمية Urmie . ولكنهم اختلفوا فى تحديد المنطقة التى انتشرت فيها الزرادشتية فى أول أمرها .

فقليل منهم يرون أن هذه المنطقة كانت « ميديا » وما حولها . ومعظمهم يرون أنها انتشرت بادىء بدء فى بختر (باكتيريا) ثم انتقلت منها بالدعاية والتبشير إلى سائر أنحاء إيران .

وهذا هو الرأى الراجح الذى تقوم على رجحانه عدة أدلة منها :—

أولا : ما ذكر فى الأبستاق من التفرقة بين أهل البادية وأهل الحضر الذين يعنون بالزراعة وتربية المواشى . وهذه التفرقة لا وجود لها إلا فى الجزء الشرقى من إيران .

ثانياً : أن الأبستاق يذكر من بين السابقين الأولين من أتباع زرادشت رجلا من الطورانيين اسمه افرايانا Frayana ، ويقال إن زرادشت قد نجح فى زردشته هو وأهل بيته وهو فى طريقه من الغرب إلى الشرق : وبلاد الطوارن تقع فى القسم الشمالى الشرقى من إيران كما قلنا من قبل .

ثالثاً : أن الأبستاق يكثر من ذكر أسماء مقاطعات وأنهار تقع فى شرقى إيران ، وقلما نجد فيه ذكراً لأجزائها الغربية .

رابعاً : أن لغة الأبستاق نفسه هى فى الغالب لغة إيران الشرقية لا لغة

ميديا . وأوضح دليل على هذا أن كلمة « مجوس » المستعملة فى اللهجة الميدية لم ترد إلا مرة واحدة فى بعض أسفار الأبستاق المتأخرة ، فى حين أن كلمة « أثرڤان » Athravan بمعنى موقدى النار ، هى المستعملة ، وهذه كلمة تشبه تمام المشابهة كلمة « أثرڤان » Atharvan المستعملة فى اللغة الهندية بالمعنى نفسه .

ويستثنى من هذا الحكم سفر الكاتاها فإنه قد كتب باللهجة الميدية ، لغة زرادشت الأصلية التى كان يعرفها قبل أن يقيم فى شرق إيران مدة كافية لتعلم لغتها . وهذا مما يدل على أن هذا السفر كان أول ما كتب من أسفار الأبستاق ، وعلى أن زرادشت نفسه هو الذى كتبه . كما يدل على أن زرادشت نشأ فى ميديا ، وعلى أنه لم يهاجر منهـا إلى (بختر) إلا فى عصر الشباب على الأقل .

خامساً : أن الديانة الزرادشتية — كما سنرى بعد — تقضى بإلقاء جثث الموتى فى العراء ، وتركها فريسة لطيور الهواء ، دون أن تدفن فى باطن الأرض فتلوثها ، وهى الظاهرة التى يعتمد عليها الناس فى جلب أقواتهم . وهذه كانت عادة مألوفة متأصلة لدى أهل البادية من سكان الجزء الشرقى من إيران ، فأنهم كانوا — قبل ظهور زرادشت — يلقون جثث موتاهم فى العراء ولا يدفنونها فى التراب ، وجاءت الزرادشتية فأقرت هذه العادة ، وهى عادة لم يكن لها وجود بين سكان الجزء الغربى من إيران .

وفى ضوء هذه الحقائق نستطيع أن نقرر ماسبق أن قررناه من قبل نقلا عن مؤرخى الفرنجة وهو أن كشتاسب الملك الذى اعتنق الزرادشتية ، وبذل جهده فى نشرها كان ملكا على الجزء الشرقى من إيران أى بختر الذى كانت عاصمته بلخ .

وليس كشتاسب هذا هو أبا دارا الأول كما يظن بعض الباحثين خطأ .

والخلاصة أنه من المرجح كثيرا :—

١ — أن زرادشت ولد على مقربة من بحيرة أورمية بمقاطعة أذربيجان إحدى مقاطعات ميديا .

٢ — أنه ولد حوالى سنة ٦٦٠ ق م ، ومات حوالى سنة ٥٨٣ م ، وعمره ٧٧ سنة [١] .

٣ — أنه هاجر فى شبابه على الأقل من ميديا إلى بختر .

٤ — أن الزرادشتية انتشرت أولا فى بختر ، ثم انتقلت منها إلى سائر أجزاء إيران .

٥ — أن مقر كشتاسب الذى ناصر زرادشت كان بلخ عاصمة إقليم بختر ، وأنه ليس والد دارا الأول الأخمينى الذى كان مقره بيرسپوليس فى إقليم فارس .

---

(١) هذا هو رأى المسعودى الذى ذكرناه من قبل فى صفحة : ١٤ . وقد يؤيده ما رويناه من أن بختنصر كان معاصراً للملك لهراسب أبى كشتاسب ، وما ذكرناه من أن بختنصر هذا خربه بيت المقدس حوالى سنة ٥٨٦ ق م .

الفصل الخامس

الأساطير المروية عما قبل مولده

١ — بعد أن أدى زرادشت رسالته ، وقضى نحبه أخذ القصاص والرواة فى الأجيال اللاحقة يحكون عن حياته الحكايات ، ويقصون الأقاصيص التى وصل بعضها إلى درجة الأساطير ، واختلط فيها الحق بالباطل وامتزجت الحقائق بالأساطير حتى صار من العسير استخلاص الحقائق الواقعية من الروايات والأقاصيص الخيالية المتشابكة .

وقد روينا الآراء المختلفة فى حياة زرادشت نفسها ، وقلنا إنه يكاد يكون من الحقائق التى لا مراء فيها أن هذا الرجل وجد فعلا . وليس هذا فحسب ، بل إن المحققين من المؤرخين يقررون أن هذا الرجل إذا قيس بمقياس التاريخ وجب أن يعد فى صف كبار الأنبياء الذين ظهروا فى شتى البيئات والعصور وأرشدوا الناس إلى طرق الحق والخير ؛ ذلك لما عرف عنه من استقامته ، وشدة إخلاصه لربه ، وتفرغه لتقديسه ، وقوة إيمانه برسالته وشدة تحمسه فى نشر دعوته .

٢ — ومع هذا وذاك نجد أن الرواة والقصاص يروون نوادر ويقصون قصصاً نقلها خلفهم عن سلفهم حتى وصلت إلينا ، وهى نوادر وقصص تتعلق بحوادث قيل إنها حدثت قبل مولد زرادشت مبشرة به ، ونجد فى بعض أجزاء الأبستاق عبارات تشير إلى بعض تلك الحوادث .

فمن بين الروايات التى شاعت بين قدامى الإيرانيين ثلاث بشائر ،

أو ثلاث حوادث مبشرات بمولد هذا الحكيم أو النبي ، وبأنه سيقطع دابر قوى الشر ، وينشر لواء الخير فى هذا العالم .

أما البشارة الأولى فهى أن ثورا ظهر بين قدامى الإيرانيين وتكلم ، وتنبأ بمولد منقذ ينقذ العالم من سيطرة قوى الشر .

وأما البشارة الثانية فنجدها فى الأسطورة المروية عن جمشيد ، الملك المبارك الطلعة الذى عاش فى العصر الذهبي من عصور تاريخ إيران ، وهو عصر البيشداديين ؛ فقد روى عن جمشيد أنه حارب قوى الشر وأنذرهم باقتراب مولد رجل سيكون على يديه فناؤهم ، والتخلص من كيدهم وشرهم .

وأما البشارة الثالثة فقد شاعت فى القرن الثالث قبل ظهور زرادشت ؛ تلك هى أن ثوراً آخر تكلم لحظة قصيرة وأعلن أن ساعة مولد هذا النبي قد اقتربت ، وأن ظهوره فى المستقبل القريب قد قضت به إرادة الرب .

٣ — وبجانب هذه البشائر نجد من بين الأساطير ما يدل على اعتقاد قدامى الإيرانيين بأن زرادشت هو روح الله ، وأن هذه الروح التى تقمصت جسد هذا المخلوق البشرى هبطت من السماء إلى الأرض ، وحلت برحم أمه ، فحملته ثم ولدته بشراً سويا .

وقد شاعت بين الإيرانيين هذه العقيدة — أى عقيدة الحلول — فى كل من كانوا ينظرون إليه نظرة تقديس ، وقد ظلت هذه النزعة شائعة بينهم حتى جاء الإسلام فاعتقدت فرقة من غلاة الشيعة هذه العقيدة نفسها فى على بن أبى طالب ، وادعوا أنه إله فى صورة إنسان ، وتسمى هده فرقة « على إله » ولا يخفى أن هذه العقيدة تكاد تكون هى نفسها عقيدة بعض فرق النصارى فى

السيد المسيح ، وكان النساطرة ممن من اذاعوا هذه العقيدة وهى عقيدة حلول اللاهوت بالناسوت ، أى حلول العنصر الإلهى (روح القدس) بالعنصر الإنسانى (جسد السيد المسيح)

ويروى الزرادشتيون فى تفصيل هذه العقيدة أن العظمة القدسية ؛ أو روح القدس ، الذى صاحب زرادشت فى أثناء حياته مع الناس على الأرض كان يسكن ملكوت السموات ، وأنه ظل يحل بالكائنات العلوية واحدا واحدا إلى أن هبط من السماء إلى الأرض ، وحل بجسد ذلك الرجل المختار . ويزيدون هذا الأمر بيانا فيقولون : إن روح القدس الذى قدر له أن يحل بجسد هذا الرجل المختار هو من خلق آهورا مزرا ، وأنه بعد أن صدر عن الرب مر بكل حلقة من حلقات السلسلة العلوية ، سلسلة الكائنات أو الأجرام السماوية ، ثم هبط من العالم العلوى إلى العالم السفلى ، وحل بجسد المرأة التى قدر لها أن تكون أما لهذا الرجل الربانى .

٤ — وتروى الأساطير أن روح القدس حل بجسد تلك المرأة إبان طفولتها الأولى : وكان جزءا لا يتجزأ من كيانها الذاتى . وقد أضفى ذلك عليها جلالا نورانيا غير عادى ، كان يبعث الرهبة فى قلوب من رأوها . وأشفق عليها أبوها ، وخشى أن تكون أيدى السحرة قد امتدت إليها ، فأرسلها إلى قرية تقع على بحيرة أورمية وهناك تزوجت من رجل من الرعاة الفلاحين ، يرجع نسبه إلى أسرة عريقة فى المجد والشرف اسمه بوروشاسبو .

وبينما كان هذا الرجل يرعى مواشيه فى حقله إذ تراءى له شبحان نورانيان لم يلبثا أن اقتربا منه ، وأنبآه أنهما الملكان فوهومان Uohuman وآشافاهيست Ashavahist . ثم قدما إليه غصنا من أغصان نبات

الهوما[1] Hoama وكان نباتا مقدسا لدى قدماء الإيرانيين ، وأمراه أن يحمل هذا الغصن معه إلى داره ، ويقدمه إلى زوجته ؛ لأنه يحمل الفرافاست Fravasit أى كيان الطفل الروحاني .

وصدع بورشاسبو بالأمر ، وعمل بإشارة الرسولين الربانيين ، ومزج الغصن باللبن ، وشربه هو وزوجته فحملت بزرادشت .

٥ — ويقول الشهرستانى فى «الملل والنحل»[2] فى هذا الموضوع مانصه مع قليل من التصرف : « زعموا أن الله عز وجل خلق — من وقت ما — فى الصحف الأولى ، والكتاب الأعلى من ملكوته خلقا روحانيا ، فلما مضت ثلاثة آلاف سنة أنفذ مشيئته فى صورة من نور متلألىء على تركيب صورة الإنسان ، وأحف به سبعين من الملائكة المكرمين ، وخلق الشمس والقمر والكواكب والأرض وبنى آدم غير متحركة ثلاثة آلاف سنة . ثم جعل روح زرادشت فى شجرة انشأها فى أعلى عليين ، ثم غرسها فى قلة جبل من جبال آذربيجان يعرف باسم «باسموى بدخر» . ثم مازج شبح زرادشت بلبن بقرة فشربه أبو زرادشت ، فصار نطفة ثم مضغة فى رحم أمه . «فشعرت بألم . » فقصدها الشيطان وعيرها . فسمعت أمه نداء من السماء فيه دلالات على برئها فبرئت .

(١) كان اسم هوما Hoama يطلق على إله السكر ، وقد سمى به هذا النبات والشراب الذى يستخلص منه .

(٢) الملل والنحل للشهرستانى المطبوع على هامش كتاب الفصل لابن حزم ٢ — ٧٧ وما بعدها .

الفصل السادس

مولده وطفولته

١ — تروى الأساطير أيضاً : « أنه لما ولد زرادشت أحاط بالدار التى ولد بها نور قدس وهاج ، وهبط من السماء نجم عظيم ، ودنا من الأرض وأعلن النبأ السار ، وظهر فى عرض الأفق فى السماء كوكب عظيم ملأ ضياؤه جميع أنحاء الفضاء .

لقد فرحت الأرض واستبشرت السماء بمولد زرادشت . ولكن عالم القوى الشريرة قد فزع أشد الفزع ، وعالم المردة من الشياطين قد جزع أشد الجزع ؛ فقد أيقنوا أن ما أنذروا به قد تحقق ، وأن هذا الحادث الجلل يؤذن بزوال سلطانهم وفناء دولتهم .

ويقال : إن الأطباء الذين حضروا ولادة الطفل هموا بلمس دماغه فنبض نبضة قوية غير عادية ، بلغت من القوة أن دفعت أيديهم فى شدة وعنف .

٢ — وتحيط الأساطير الإيرانية طفولة زرادشت بسياج من الخرافات الخيالية مثل ما فعلت الأساطير الهندية بطفولة كرشنا .

ويروى أن أولى معجزات زرادشت أنه ضحك[1] عقب ولادته بصوت مرتفع سمعه جميع الحاضرين ، وعجبوا منه أشد العجب ؛ إذ أن العادة قد جرت بألا يضحك الأطفال عقب ولادتهم .

---

(١) ذكر الشهرستاني هذه المعجزة فى كتابه السابق ذكره ص ٧٧ .

ومستفاد من بعض عبارات الآبستاق : أن قوى الشر قد بذلت جهودا جبارة متوالية لاغتيال هذا الطفل الذى قدر له أن يصل بإيران القديمة إلى أوج عظمتها . ولكن العناية الالهية قد حرسته ، وجعلت هذه المحاولات جميعها تبوء بالفشل الذريع .

وقد استمرت هذه المحاولات فى شدة وعنف إلى أن أسلم بورشب ولده إلى مثقف ليكون فى رعايته ، ويخفف عن أبيه أعباء تلك التبعة الجسيمة والمشقات العظيمة التى كان يتحملها فى سبيل تربية ابنه وحمايته . ومنذ ذلك الحين أخذت محاولات الاغتيال تقل شيئا فشيئا .

وقد أثر عن بعض مؤرخى العرب والسريان أن لارمياء أو عزرا من أنبياء بنى إسرائيل شأنا فى تربية زرادشت .

ونفصل القول فى شرح عبارات الأبستاق المشار إليها فنقول : إن زرادشت ولد — كما قلنا من قبل — بآذربيجان إحدى مقاطعات ميديا ، وكان يحكمها فى ذلك الزمن رجل اسمه « دوران سرون » نائبا عن لهراسب أبى كشتاسب ، وكان هذا الرجل يدين بدين أهريمن ، ويؤمن بالسحر . وقد أخبره المنجمون أن نبياسيظهر يتم على يديه إبطال السحر ، ومسخ دين أهريمن .

ولذا كان دائما يسأل عن المواليد ويتتبع أخبارهم . ولما سمع بولادة زرادشت ؛ وبأنه ضحك عقب ولادته ذهب فى طلبه إلى دار أبيه بورشب . ولما جاءوا بالطفل هم بسحب خنجره ليريق دمه ويكفى شره . ولكنه لما أمسك بخنجره لتنفيذ غرضه جمدت يده ، وغمرته هيبة ورهبة ، فترك الطفل وخرج من دار بورشب تعلوه الكآبة ، ويحيط به الغم والهم .

ومالبث أن استدعى إليه السحرة وأتباع أهريمن ، وقص عليهم ما حدث ،

فقالوا : إننا سندبر للطفل مكيدة ننتزعه بها من حضن أمه ، ونوقد له ناراً حامية ، ونلقيه فيها فيحترق ، ونستريح من خطره .

وما إن خرجوا من عنده حتى أعدوا — خارج القرية — كومة من الحطب الجزل ، ثم اختطفوا الطفل من أحضان أبويه ، ووضعوه فوق الكومة وأشعلوها ، ثم انصرفوا إلى دورهم ، موقنين أن النار قد اشتعلت والتهمت الطفل .

ولكن النار لم تحرقه ، بل كانت بردا وسلاما عليه ، وأخذته سنة من النوم فنام فى وسط الرماد ، ومابقى نائماً حتى جاءت أمه مستخفية على حين غفلة من الناس ، فحملته إلى دارها سليما معافى بريئا من كل أذى . وما إن مر قليل من الزمن حتى علم « دوران سرون » وأعوانه من السحرة بنجاة زرادشت[1] .

ويمكن أن يقال على وجه الإجمال إن زرادشت ماوقع فى محنة إلا خرج منها سالما آمنا ، وقد ذاع صيته ولما يزل طفلا ، وطرقت أسماع الناس نجاته وخروجه من تلك المآزق .

وكان فى ذلك الزمان عالم يشار إليه بالبنان اسمه برزين كروس ، وكان يعلم أن نبيا سيظهر فى عصره ، فلما وصلت إليه أنباء زرادشت الطفل أسرع إلى داره ، وطلب من أبيه أن يشرفه بخدمة ابنه ورعاية شئونه ، فلبى بورشب طلبه ، وسلمه طفله ؛ ليكون لديه بمأمن من تلك الدسائس والمؤامرات التى تحاك ضده . فحمله برزين كروس إلى داره ، وقام بخدمته ورعاية شئونه على أتم وجه ، وأولاه كل ماينبغى من إجلال وتقدير .

ومرت على ذلك سبع سنوات كان فيها « دوران سرون » والسحرة وأتباعهم يجدون فى البحث عن الطفل . ولما بلغهم أنه فى دار « برزين كروس »

---

(١) اعتمد فريق من المؤرخين على هذه الحادثة فقالوا إن زرادشت هو إبراهيم الخليل نفسه . ولكن البحث الحديث قد برهن على أن إبراهيم الخليل كان قبل زرادشت بعدة قرون .

أجمعوا أمرهم ، وحملوا على الرجل فى عقر داره حملة رجل واحد ليختطفوا الطفل ، ورآهم الرجل فذعر ، وتملكه الخوف والفزع ، ولم يجد بدأ من الهرب لينجو بنفسه ، وترك داره هو ومن كان معه ، ولم يبق فيها إلا زرادشت وحيداً .

وحين حضر دوران سرون وأتباعه لم يأبه بهم الطفل، ولم يكن لوجودهم أثر فى نفسه ، وما إن دنوا منه حتى أخذتهم رعدة ، وغشيتهم رهبة ، وأدركهم الخوف والفزع ، فخرجوا يجرون أذيال الخزى ، ويعضون الأنامل من الغيظ .

وكان زعيم السحرة فى ذلك الزمان شيخا هرما ماكرا اسمه « برتروش » فلما أدرك أن كل حيلة لم تنفع ، وأن كل كيد لم يفلح ، لجأ إلى الخديعة والمكر ، ففتح باب المسالمة وعرض على بورشب المهادنة ، وهو يضمر فى نفسه الشر ويخفى فى ضميره السوء ، ويتربص بزرادشت الدوائر ، حتى إذا ما حانت الفرصة أظهر ما يبطن ، وأبدى ما يخفى ، وأعلن ما يسر .

وحدث بعد ذلك أن مرض زرادشت فانتهز « برتروش » هذه الفرصة وصنع معجونا مهلكا ، وقدمه إلى بورشب . وقال له إن هذا دواء ناجع فيه شفاء لزرادشت من مرضه . وأخذ بورشب المعجون وقدمه إلى زرادشت ليتناوله ، فما كان منه إلا أن اخذه وألقاه على الأرض وشرح لأبيه حقيقة أمره .

وهكذا فشلت جميع الدسائس التى دبرها الكائدون ، وجميع المؤمرات التى أحكمها الحاقدون ، وكان زرادشت ينجو من كيد المكايد وشر الدسائس [1] .

---

(١) روى الشهرستانى فى كتابه نفسه : أنهم احتالوا على زرادشت حتى وضعوه بين مدرجة البقر ومدرجة الخيل ، ومدرجة الذئب وكان ينهض كل منهم بحمايته من جنسه . ص ٧٧ وما بعدها .

الفصل السابع

زرادشت من الخامسة عشرة إلى الثلاثين

١ — بلغ زرادشت الخامسة عشرة فذاع أمره بين الناس ، وعلم به القاصي والداني فى طول البلاد وعرضها .

وفى هذه السنة أدخل بصفة رسمية فى دين آبائه وأجداده ، وطبقاً للطقوس الدينية التى كانت تتبع منذ القدم بين الشعوب الآرية شد على وسطه الحبل المقدس (الزُّنَّار) . وتقضى التعاليم الدينية بأن يبقى مشدودا حول وسط المتدين طول حياته . وقد أبقى زرادشت — فيما بعد — على هذه السنة ، وجعلها من طقوسه الدينية ؛ فكان الحبل المقدس المسمى « كوستى » Kustî يعطى للشاب عند بلوغه المراهقة ، فيشده على وسطه للدلالة على أنه دخل فى دين آبائه بصفة رسمية .

ويشبه الحبل المقدس لدى الزرادشتيين نظيره لدى البراهمة ، وكان من الواجب أن يشد على وسط الشاب على مقربة من قلبه بحيث يتصل بالقميص المقدس .

وكان الحبل المقدس يتألف من ٧٢ خيطا ، ترمز إلى أجزاء الياشنا Yashna أحد أسفار الأبستاق المكون من ٧٢ فصلا . وكانت ستة من هذه الخيوط تترك غير معقودة من الطرفين ؛ أما الستة فرمز إلى الأعياد الدينية الرسمية الستة ، وأما الأطراف الاثنا عشر فترمز إلى المنازل الفلكية الاثنى عشر .

وكان الحبل يشد حول الوسط ثلاث مرات ، إشارة إلى مبادىء الزرادشتية الثلاثة وهى (١) التفكير الطيب أو حسن النية و (٢) الإحسان أوالعمل الطيب و (٣) الحق الأسمى .

وكان الحبل يعقد مرتين من الأمام ومرتين من الخلف ، إشارة إلى العناصر الطبيعية الأربعة (الأسطقسات) وهى التراب والماء والنار والهواء وكان الحبل أجوف بداخله فضاء يمتد من أوله إلى آخره ؛ إشارة إلى الفضاء الممتد بين السماء والأرض .

وكان من الضرورى أن يحل الحبل ويعقد مع تلاوة الأدعية قبل تناوله الطعام ،وقبل النوم ، وبعد الاستيقاظ منه ،وفى غير هذه من الأوقات المحددة .

كما كان من الواجب أن يغسل الشخص وجهه ويديه قبل أن يلمس الحبل ، وأن يتلو حينئذ دعاء يسمى دعاء الكيمنا Kemna [1]

٢ — والمعروف من حياة زرادشت الخاصة بعد بلوغه الحلم أنه تزوج ثلاث مرات،وأنه أنجب من زوجته الأولى ابنا وثلاث بنات ، زفت إحداهن وهى بوروشستا Purushista إلى رجل اسمه جاماسبا Jamaspa أحد حوارى زرادشت اللذين ساعداها فى نشر دعوته وشرح تعاليمه .

وأنجب من زوجته الثانية ابنين هما أورفاتاتنارا Urvatatnara وهفاريكترا Hvarecithra اللذان صارا فيما بعد رئيسين لجماعتين كونهما أبوهما وهما : جماعة الفلاحين وجماعة المحاربين .

---

(١) راجع Oriental Philosophy, by F. Grant : 216—217.

وكانت زوجته الثالثة هفوفى Hvovi بنت فراشا أوسترا Frashaostra ثانى حوارى زرادشت ، وبنت أخى جاماسبا حواريه الأول . وكان كلاهما من حاشية الملك كشتاسب الذى قدر له أن يدخل فى دين زرادشت ويصير من أشد أنصاره تحمسا للزرادشتية .

ومع أنه لم يكن لهذه الزوجة الثالثة أولاد فإنه قد شاعت عن مصيرها نبوءة عظيمة هى أنها ستكون أما لثلاثة من أبناء زرادشت الروحانيين ، وكذلك لساؤوشيانت Saoshyant الذى سيخلف زرادشت ويظهر بين الزرادشتيين مسيحاً أو مهدياً ينقذهم مما سيعانونه من محن وأهوال . (٢) بعد وفاة زعيمهم .

٢ — ولما بلغ زرادشت العشرين من عمره أحس لأول مرة بقوة روحانية محركة تدفعه إلى النهوض برسالته ، وامتلأت جوانب نفسه رغبة فى الوصول إلى الحقيقة اللدنية . وصدقت عزيمته على ذلك فهجر وطنه ، وجد فى الطلب ، وواصل السعى فى سبيل الحصول على مأربه ، والوصول إلى غرضه

وظل عشر سنين هائماً على وجهه وحيداً ، يجوب الآفاق ماشيا على قدميه ، جاداً فى تلمس الحقيقة الإلهية فى كل مكان ، فى طول إيران وعرضها .

وينبئنا بعض مؤرخى اليونان أن زرادشت قضى الجزء الأكبر من هذه السنوات العشر فى عزلة تامة وصمت رهيب ، يأوى إلى الكهوف والمغارات ، ويسير فى الأودية والفلوات ، محاولا أن يروض نفسه ، ويعدها لإدراك الأسرار الإلهية : أسرار أهوراً مزدا ، الإله الأكبر .

---

(٢) المرجع نفسه ص : 217.

الفصل الثامن

نزول الوحى

١ — بلغ زرادشت الثلاثين[1] من عمره وهو منغمس فى تلك التأملات الفكرية والرياضيات الروحانية ، يقطع مراحل السمو الروحى واحدة بعد أخرى ؛ وتلك مراحل لا بد أن تقطعها نفس كل نبى بمفردها ، حتى تصل إلى أوج العظمة الروحانية .

ولم تضع جهود زرادشت عبثاً بل إنه جزى عليها أحسن الجزاء ، ذلك أنه فى أثناء تجواله وصل إلى نهر ديتى Daiti فى مقاطعة أذربيجان ، تلك المقاطعة التى حدثت لزرادشت فيها حوادث نادرة المثال . وبينما هو واقف على شاطىء هذا النهر عند الفجر إذا بنشوة روحانية تغمره ، وتنتشر فى جميع جوانب نفسه ، وتملؤها نوراً وهاجا . وبينما هو منغمس فى تلك النشوة ، مغمور فى هذا النور إذا به يرى كائناً نارياً نورانياً يدنو منه ، وكأنه عمود من نور حجمه تسعة أمثال حجم الإنسان ، يحمل فى يده عصا من اللهب . ولم يلبث أن حلق من فوق رأس زرادشت فى صورة عمود من نور كذلك ، وأمره أن يخلع ملابسه ، ثم أنبأه أنه هو ڤاهومانا Vahumanah كبير الملائكة ، وأنه قد جاء ليقوده إلى الملأ الأعلى ليحظى بشرف المثول لدى أهورامزدا نفسه . وصدع زرادشت بالأمر ، ولم يلبث أن وجد نفسه لدى الإله الأكبر يحيط به ضياء عظيم . وهنالك تلقى عن الإله الأعظم كلمات

---

(١) قال الشهرستانى : ولنشأ « زرادشت » بعد ذلك إلى أن بلغ ثلاثين سنة فبعثه الله نبياً رسولا إلى الخلق ، فدعا كشتاسف الملك فأجابه إلى دينه . راجع كتابه السابق ذكره : ص ٧٧ وما بعدها .

الحق والحقيقة ، وتعلم أسرار الوحى المقدسة ، واستمع إلى أمر النبوة .

٢ — وأفاق زرادشت من نشوته ، واستيقظ من غفوته ، وعاد إلى إنسانيته بعد أن تكررت تلك التجربة الروحانية ثلاث مرات ، فانطلق لايلوى على شىء ، ليكمل رحلته فى بلاده ، وهو يشعر بأن روح الإله الأكبر قد حلت به .

وظل يجد فى طلب النفوس الطاهرة المستعدة لتلقى الأسرار التى أدركها بطريق الوحى ، واستمر يفعل كما كان يفعل أنبياء بنى إسرائيل ؛ ينذر الناس ، ويحذرهم باسم الإله الأعظم .

من ذلك تعرف أن نبوة زرادشت تمت وهو فى السنة الثلاثين من عمره ، وتسمى هذه السنة بين الزرادشتيين باسم « سنة الدين » ، لأنها تحدد اليوم الذى ارتجفت فيه قلوب الشياطين والمردة فزعاً من هول هذا الحادث الذى يؤذن بزوال سلطانهم ، فأخذوا يشدون عزائمهم ، ويستعدون لخوض غمار المعركة التى سوف تنشب فى المستقبل القريب بين الحق والباطل ، أو بين الخير والشر ، أو بين النور والظلام .

وقد كانت تلك السنة — كما يقول فرانسيس جرانت — هى السنة التى ولد فيها زرادشت النبى من زرادشت الراعى الإيرانى .

٣ — وقد عانى زرادشت فى السنوات العشر التالية لنبوته من المتاعب والأهوال ما أجهد أعصابه ، ومزق نياط قلبه . وقلما نجد من بين الأنبياء والمصلحين والمعلمين الروحانيين من تحمل مثل تلك المشاق التى تحملها زرادشت خلال تلك السنوات الطوال بدون جدوى .

وأحس زرادشت بشىء من اليأس حينما لم يظفر فى بلاده بأتباع يدخلون

فى دينه ، فهاجر إلى طوران التى يضرب بها المثل فى معاداة إيران ، وهنالك ذاق الأمرين ، وشرب كئوس العذاب مترعة .

لقد انفض أهله من حوله ، ولكنهم لم يفكروا فى إيذائه والإيقاع به . أما فى طوران فقد كانت حياته نفسها فى خطر ، ولم ينجه من الهلاك إلا وساطة ملك الطوارنيين .

وتروى الروايات المختلفة عن رحلات زرادشت فى تلك السنوات العشر الموحشة ؛ فيقال إن تحمسه فى الدعوة إلى الحق جعله يجوب إيران كلها ، وليس ذلك فحسب ، بل إنه طوف فى طوران والهند ، وأبعد فى السير حتى وصل إلى الصين ، مجاهداً فى سبيل دعوته ، ولكن هذه الجهود كلها ذهبت مع الريح .

ومع ذلك فإن أهورا مزدا لم يتركه ، ولم يحرمه عنايته ، بل إنه ظل يؤيده ويقوى عزيمته ، ويثبت عقيدته بالوحى المتوالى .

فقد نزل عليه الوحى سبع مرات فى هذه الفترة ظهر فيها لزرادشت أهورامزدا ، والملائكة الستة كبار الملائكة ، ليلقنوه أصول الحكمة .

٤ — وتذكر الروايات الزرادشتية أن هؤلاء الملائكة الستة العظام هم أساطين عرش أهورا مزدا نفسه ، وأنهم رموز أومثل عليا لمعان أوفضائل إنسانية مقدسة ؛ ثلاثة منهم ذكور يقفون عن يمين العرش ، ويمثلون المبادىء الزرادشتية الثلاثة وهى : التفكير الطيب أو حسن النية ، والحق الأسمى ، والإحسان أو العمل الطيب ، وثلاث إناث يقفن عن شمال العرش ، ويمثلن مبادىء ثلاثة أيضاً هى : الفداء ، والخلود ، والتقوى الربانية .

لقد حظى زرادشت بمشاهدة هذه الكائنات العظيمة ـ التى تتجاوز

عظمتها حدود الوصف — سبع مرات ، فى أماكن مختلفة ، وقد تمت هذه المشاهدات فى أثناء تجواله فى البلاد الإيرانية . وقد لقنه كل فرد من أفراد هذه الجماعة الروحانية حقيقة من الحقائق الكبرى ؛ فتعلم منهم حقيقة النار المقدسة ، والأسرار التى تنطوى عليها الأرض ، وحياة الحيوانات والنباتات ، وخواص المعادن ، والسر فى وجوب العناية بالماء ، وفى الصراع الأزلى الأبدى بين الخير والشر .

ومنح زرادشت طلسما يقيه غواية الشر التى حذره إياها أهورا مزدا ، ويؤيده فى ساعات الحرج ، وينقذه مما يقع فيه من ضيق ، ذلك الطلسم هو الدعاء mantram المسمى أهوناڤيريا Ahuna Vairya ، وهو دعاء قصد به أن يحصن النفس ، ويجعلها فى أمان من الغواية والفتنة . وها هى ذى ترجمته —

« إن إرادة الرب تقضى باتباع قانون التقوى والاستقامة ، وإن عطايا فاهومانا توهب لمن يعمل فى هذا العالم الأعمال الطيبة حبا فى أهورا مزدا . وكل من يقدم المعونة للفقراء من إخوانه يمده أهورا بقوته . »

٥ — ولم يكن تحذير أهورا لنبيه من غواية الشيطان تحذيراً عابثاً لا يستند إلى أساس ، فقد ظهرت آثاره حينما أسرعت قوى الشر إلى التجمع والقيام بهجوم مركز ضد زرادشت ، وحاولت جموعهم أول الأمر أن يقتلوه ، ولكنهم بادوا بالفشل حين قرأ عليهم زرادشت دعاء أهونا .

ثم حاولوا إغراءه بأن يهبوا له مملكة ويجعلوه ملكا لها ، ولكنه صمد لهم ولم يتزحزح عن موقفه قيد شعرة ، وذكرهم بأنه لابد منتصر عليهم بالهاون المقدس ، وبالكأس المقدسة ، وبالكلمة الصادرة عن أهورا مزدا .

وحينما اعترفوا بالهزيمة توج انتصاره عليهم بتلاوة المانترام مرة أخرى ؛ ذلك الدعاء الذى تعلمه ليحصن به نفسه فى أوقات الشدة .

وعلى الرغم من تلك الأسلحة الروحانية التي استمدها زرادشت من الوحي، وعلى الرغم من الجهود الجبارة المتتابعة التي بذلها في دعوة أهله وعشيرته وغيرهم إلى الإيمان برسالته، والدخول في دينه. فإنه لم يجد أحداً يتسع صدره لقبول دعوته.

فلا عجب إذا كنا نراه — وقد اعتراه شيء من اليأس — يهرع إلى ربه ويقف بين يديه، ويتوسل إليه بذلك الدعاء الذي بدأنا به الحديث عن زرادشت.

« ولم يذهب تضرعه سدى، فبينما هو في بؤسه وشقائه بعد توسله إليه إذا بالشمس تشرق في كبد السماء، وينظر إليها زرادشت فيراها مشرقة صافية الجوهر، ترسل أشعتها الذهبية الباهرة، فيملأ ضياؤها جميع الأنحاء، ويصل دفؤها إلى جميع الناس على السواء، لا تريد منهم جزاء ولا شكوراً. »

« ويفكر زرادشت في أم الكواكب فيرى فيها رمزا لإله النور الذي يفيض طهرا وجلالا، ونعمة وفضلا، وتتسع نعمته فتعم المشرقين، ويمتد فضله فيشمل الخافقين ».

« لقد مرت هذه الفكرة بخاطر زرادشت فأدرك في ظلمات الفشل بارقة من أمل، ولمح في دجى القنوط قبساً من رجاء، وإذا بهاتف يناديه من صميم نفسه، يدعوه إلى التشجع في إيمان وثقة، وإلى معاودة النشاط في صبر وجلد، فالليل لابد أن يعقبه النهار، والصبر لا بد أن يتلوه النصر. »

« وقد تحقق الرجاء، فما إن بدأت السنة التالية وهي الحادية عشرة بعد نبوته حتى بدت في الأفق طلائع النجاح؛ فها هو ذا ابن عمه ميتيوماه Metyomah يلبي نداءه، ويهب لنصرته[1] ».

ومضت سنتان كان فيهما ذلك الرجل هو الشخص الوحيد المؤمن

(١) راجع ص: ٦ من هذا الكتاب.

برسالة زرادشت . ومع ذلك فقد مضى فى جهاده لم تفتر عزيمته، ولم تضعف إرادته .

٦ — ويجدر بنا أن نذكر هنا أسطورة تروى عن دغدويه أم زرادشت تلك هى : أنها رأت فى نومها وهى حامل أن عددا عظيما من الحيوانات الضارية المفترسة قد انقضت عليها ، وحاولت أن تفترسها وتخرج الجنين من بطنها ، وإذا بملك ينزل من السماء ويصارع هذه الوحوش الكاسرة فيصرعها، ثم تولى أدبارها فرقا منه ، ويبقى الجنين فى بطن أمه سالما لم يمسسه سوء .

فبعد أكثر من أربعين سنة تتحقق الرؤيا ، وتؤول بأن تلك الوحوش الضارية رمز لاهريمن وأعوانه من الشياطين وقوى الشر ، الذين يتربصون لزرادشت ، ويحاولون الإيقاع به ، وبأن الملك الذى نزل من السماء وأنقذ الجنين وأمه وهزم الحيوانات الكاسرة رمز لميتيوماه ابن عم زرادشت الذى كان أول من آمن به ، كما كان صديقه الحميم المؤيد له فى نشر دعوته .
وكان إيمان ميتيوماه تحقيقا لرؤيا أخرى رآها زرادشت وقد ذكرناها من قبل ، كما كان بداية لظهور الزرادشتية وانتشارها .

الفصل التاسع

مع كشتاسب فى بلخ

١ — بعد أن بلغ زرادشت الثانية والأربعين أوحى إليه أهورامزدا أن يتجه إلى كشتاسب ملك إيران . الذى كان طيب القلب ، نقى السريرة ، مستعداً لقبول الدعوة إلى طريق النور والخير ، على الرغم من أن كثيراً من أفراد حاشيته كانوا من أنصار أهريمن إله الظلام والشر .

ويصدع زرادشت بالأمر فيولى وجهه نحو قصر ذلك الملك ، وحيدا ، ثابت الجنان ، قوى الإيمان ، غير مبال بما لاقى من متاعب ، ولا بما عسى أن يعتريه من صعاب فى سبيل وصوله إلى الملك . وكثيراً ما كان يدعو ربه وهو فى طريقه إلى بلخ ، يتضرع إليه أن يشرح صـــدر الملك لتقبل دعوته والإيمان برسالته .

٢ — ومن عجيب ما يروى أن زرادشت عرج فى طريقه إلى كشتاسب على ملكين آخرين وعرض عليهما تعاليمه ، ودعاهما إلى الدخول فى دينه ، فرفضا ، فعاقبهما الرب على ذلك بأن أرسل على بلادهما ريحاً صرصراً عاتية ، وطوفاناً عظيما طغى على أرضهما فأغرقها .

وقد حملت الريح هذين الملكين اللذين تملكهما الغرور ، ورفعتهما إلى جو السماء ، فبقيا معلقين بين السماء والأرض حيين ، فاضطربت أمور رعاياهما ، وساءت أحوالهم ، فهرعوا إلى زرادشت يطلبون منه الصفح عن الملكين . ولكن الرجاء جاء بعد فوات أوانه ، وبقيت جثتا الملكين معلقتين فى الهواء

تأكل من لحومهما طيور السماء، وتطعم منها أفراخها . وبعد أن أكلته الطيور اللحوم سقطت العظام على الأرض .

٣ — وأخيراً وصل زرادشت إلى عاصمة الملك ببلخ، بعد أن قطع السهول، وطوى الوديان، وأدمت قدميه وعثاء السفر، وكاد الجوع يمزق أحشاءه، وأوشك العطش أن يفتت أمعاءه .

ولكن لابأس، فماذا بعد العسر إلا اليسر؟ وماذا بعد الصبر إلا النصر؟

ويروى مؤرخو الأغريق أن زرادشت علم حينما وصل إلى دار الملك ببلخ أن الملك خرج للصيد . أفتراه يهدأ ويستجم، ويسترد قواه، ويخفف من تلك المتاعب والآلام التي عاناها في رحلته القاسية؟ لا . إنه لم يفعل ذلك، ولم تطمئن نفسه إلى الراحة، بل إنه واصل السعي حتى وصل إلى ميدان الصيد، وقابل الملك وجهاً لوجه، ودعاه إلى الدخول في دينه .

ولكن مؤرخي العرب والفرس يروون أن زرادشت لما وصل إلى بلخ عاصمة ملك كشتاسب علم أن الملك وحاشيته وعلماء دولته مجتمعون للبحث والنقاش في أمور هامة . فما كان منه إلا أن دخل وبيده مجمرة قيل إنها من هدايا السماء . ولم يأبه بأحد من الحاضرين بل إنه سار في طريقه لا يلوى على شيء، حتى وصل إلى سرير الملك، فجلس بجانب الملك، واشترك في المناقشة، وظهرت عليه أمارات النباهة، وعلامات الحذق والمهارة في الجدل والمناقشة .

وغضبت الحاشية والأمراء والعلماء لذلك، فصمموا على أن يحطوا من قدر زرادشت أمام الملك، فاتفقوا على أن يوجهوا ثلاثة وثلاثين سؤالا تتضمن مشكلات عويصة، ويطالبوا زرادشت بالإجابة عنها .

وعرضوا الأمر على الملك فأجابهم إلى رغبتهم . وفي الغد إنعقد المجلس

وعرض العلماء الأسئلة على زرادشت . ودعوه إلى الإجابة عنها ، فأجاب عنها جميعها إجابات سديدة فى لباقة فائقة ، وأفاض فى شرح كل سؤال والإجابة عنه حتى أدهش الحاضرين ، وأظهر جهل العلماء ، وأخمد أنفاسهم .

ولما خلا منهم المجلس عرض زرادشت على الملك الأبستاق، كتابه المقدس ، وأخذ يتلو عليه بعض عباراته ، فأعجب الملك بها ، وأحدثت فى نفسه أثراً بليغاً ، وعظمت منزلة زرادشت فى نظره . وفى الحال أمر أن يعد لإقامته مكان خاص يزود بفاخر الأثاث والرياش . وأن يفرغ لخدمته بعض الخدم .

وزاد ذلك فى حنق الحانقين على زرادشت ؛ وفى حقدهم عليه وكراهيتهم له ، ولكنهم لم يجدوا الفرصة سانحة لمعارضته ، فسكتوا على مضض ، وأخذوا يدبرون له المكايد ، ويترقبون الفرصة المناسبة للإيقاع به .

٤ — وتبين زرادشت أن زردشة الملك ليست من السهولة كما كان يظن ، وأيقن أن محاولته إدخاله فى دينه محنة قاسية ابتلى بها ، فقد لبث سنتين متواليتين يتردد على الملك .ويطالبه بالدخول فى دينه ، ويستمع إلى كلمات الشر وعبارات السوء من حاشيته ، وقاسى الأمرين من جراء دسائسهم الخبيثة .

وأخيراً أغواهم فكرهم السيء ، وأغراهم تفكيرهم الخبيث أن يتصلوا بخادم زرادشت ، ويحرضوه على أن ينضم إليهم ، ويعاونهم على الوصول إلى غرضهم . وقد نجحوا فى ذلك بعد أن عرضوا على الخادم أن يجزلوا له العطاء إذا أخلص فى معاونتهم ، ثم أوعزوا اليه أن يدس فى متاع زرادشت أشياء تحرم حيازتها ؛ لأنها تستخدم فى ممارسة السحر ، مثل شعر القطط والكلاب ومخالبها . فاستجاب الخادم لهم وحقق رغبتهم .

ثم أرسلوا إلى الملك من أخبره أن زرادشت ليس نبيا كما يدعى ، وإنما هو ساحر ماكر ، يتوصل إلى أغراضه بممارسة السحر الذى ينهى عنه الملك ،

وأن أوضح دليل على ذلك أن فى حوزته كثيراً من الأشياء التى يستخدمها السحرة . فما كان من الملك إلا أن أمر بالكشف عن حقيقة الأمر .

ولما تبين له أن الخبر فى ظاهره صحيح غضب على زرادشت وأمر بسجنه .

لقد نجحت الدسيسة ، ووقع زرادشت فى الشرك ، ولبث فى السجن عدة أيام ، وهو يشعر بمرارة الظلم ، ويتضرع إلى ربه أن يظهر الحق ، ويكشف عنه السوء .

ولم يزل على تلك الحال حتى حدث حادث كان السبب فى خروجه من السجن ، ونجاحه فى زردشة الملك ، والانتقام من خصومه ، ثم فى انتشار دينه فى جميع أنحاء إيران .

٥ — كان للملك جواد أسود يحبه ويعتز به ، ويؤثره على غيره من الجياد باستخدامه فى الصيد والقنص . وذات يوم ذهب السائس إلى الإصطبل ، وما إن وقع نظره على هذا الجواد حتى رأى أمراً غريبا معنا فى الغرابة لم ير مثله من قبل . رأى أن قوائم الجواد الأربع قد تقلصت جميعها ، ودخلت فى بطنه ، ولم يظهر منها إلا أطرافها .

لقد كانت هذه مفاجأة محزنة جزع لها السائس أشد الجزع ، فهرع إلى الملك وأخبره الخبر ، فحزن أشد الحزن ، وأدركه ما لا يمكن وصفه من الأسف على هذا الجواد العزيز عليه المحبب لديه .

وفى الحال أمر أن يعرض الجواد على أمهر البياطرة ليعالجوه ، ويبرئوه من مرضه بأية وسيلة من الوسائل . وحاول الأطباء علاج الجواد ، ولكنهم عجزوا تمام العجز . وقال خلصاء الملك وغيرهم من أفراد الشعب : لنذهب إلى هذا

الذى يدعى أنه نبي لنستشيره فى أمر الجواد، وننظر ماذا هو فاعل به .

ووافق الملك على ذلك ، وأرسل إلى زرادشت السجين من عرض عليه الأمر ، وطلب منه أن يدعو ربه أن يبرىء الجواد من مرضه — فإذا تم له ذلك كان نبياً صادقاً فيما يدعيه من النبوة والاتصال بملكوت السماء .

وقبل زرادشت هذا التحدى ، ورضى أن يلبي طلب الملك إذا وعد بتنفيذ ما يعرضه عليه من شروط ، وكانت أربعة . فأذعن الملك لهذا الطلب، ووعد بتنفيذ الشروط الأربعة ، على أن يعقب تنفيذ كل شرط خروج إحدى أرجل الفرس من بطنه .

وكان الشرط الأول أن يعلن الملك على ملأ من قومه دخوله فى دين زرادشت . فقبل الملك هذا الشرط عن طيب خاطر ، وأعلن دخوله فى الزرادشتية ، فرفع زرادشت رأسه إلى السماء ، وتوجه إلى ربه بالدعاء . وما إن انتهى من دعائه حتى خرجت رجل الحصان الأمامية اليمنى من بطنه .

وكان الشرط الثانى أن يقدم الملك ابنه اسفنديار قربانا للدين زرادشت، فيجعل حياته وقفاً على نشر هذا الدين فى كل مكان ، بكل ما لديه من وسائل. ولما قبل الملك هذا الشرط دعا زرادشت ربه فخرجت الرجل الخلفية اليمنى من بطن الحصان .

وكان الشرط الثالث أن تترك الملكة دين أهريمن ، وتدخل فى دين أهورا مزدا .. ولما أعلنت الملكة تبرؤها من أهريمن وأتباعه تضرع زرادشت الى أهورا مزدا فخرجت الرجل الأمامية اليسرى من بطن الجواد كاملة مستقيمة .

وكان الشرط الرابع والأخير أن يسرع الملك الى إطلاق سراح زرادشت ،

ويعاقب المسئولين عن سجنه عقابا صارما . فتقبل الملك هذا الشرط أيضاً ، فأخرج زرادشت من السجن ، وأمر بالبحث عن الأسباب الحقيقية التى دعت إلى سجن زرادشت ، فأسفر البحث فى القضية عن إدانة الحارس خادم زرادشت، فاعترف بجريمته . وكشف عن أسرار المؤامرة التى دبرها الحاقدون ضد زرادشت . فأمر الملك بمعاقبة هؤلاء على جريمتهم . وفى الحال خرجت الرجل الخلفية اليسرى ، وشفى الجواد ، وعاد إليه نشاطه ورواؤه .

وكان شفاؤه إحدى المعجزات الكبرى التى ظهرت على يدى زرادشت[1] .

ويروى الرواة معجزات أخرى لزرادشت منها أنه عالج كثيراً من المرضى الذين عجز الأطباء عن معالجتهم ، وكان من هؤلاء لهراسب أخو كشتاسب ووزيره . وكانت طريقته فى علاج المرضى أن يتوسل إلى أهورا مزدا ويدعوه أن يشفيهم من أمراضهم ، وكان أهورا مزدا يجيب دعوته كلما دعاه .

٦ — ورأى كشتاسب معجزات زرادشت تتوالى فأيقن بنبوته ، ولم يتردد فى الإذعان بصدق رسالته ، غير أنه قد عن له أن يطلب مزيدا من هذه المعجزات ، ويعرض على زرادشت تحقيق بعض رغبات خاصة بشخصه ؛ ليطمئن قلبه ، وتصفو عقيدته .

فبعد أن برىء جواده تقدم إلى زرادشت وعرض عليه أن لديه أربع رغبات يود أن تتحقق فى مقابل رغبات زرادشت وشروطه التى نفذها الملك على نحو ما ذكرنا . ورضى زرادشت بذلك . فأبدى الملك رغبته فى :—

١ — أن يطلعه زرادشت على مكانه فى الجنة بحيث يراه بعينى رأسه .

٢ — أن يتحول جسده كتلة من حديد بحيث لا يؤثر فيه أى سلاح .

---

(١) يذكر الشهرستاني هذه المعجزة فى كتابه السابق ذكره .

٣ — أن ينبئه زرادشت بحوادث العالم كلها ـ ما كان منها وما هو كائن وما سيكون .

٤ — أن يبقى هو حيا إلى يوم القيامة .

وسمع زرادشت ما قال الملك ، فأنبأه أن تحقيق هذه الرغبات سهل ميسور ، ولكنه ليس من الممكن أن تتحقق كلها فى شخص واحد ؛ ولذا كان من الضرورى أن يختار الملك إحدى هذه الرغبات دون غيرها . وفكر الملك مليا ، ثم قرر أن يختار الرغبة الأولى ، وهى أن يرى بعينى رأسه المكان المعد له فى الجنة .

وتضرع زرادشت إلى ربه أن يجيب دعوته ، ويطلع الملك على مايريد . وحينئذ أجاب الرب الدعاء ، فأمر عددا من الملائكة المقربين، منهم : دهومن ، وشاواهيشت ، واسبينيشت ، أن ينزلوا إلى قصر الملك على ظهور جياد من جياد الجنة ، وعليهم ملابس سندسية خضراء من ملابس أهل الجنة . تغطى أجسامهم ـ من رءوسهم إلى أقدامهم .

فلما هبطوا إلى مقر الملك جعلوه يبدو كأنه قطعة من نور متلألئ يكاد يذهب بالأبصار . ورأى ذلك حاشية الملك وأمراء الدولة فبهتوا ، وفقدوا وعيهم ، وجدوا فى الهرب واختفوا فى زوايا القصر . وبهت الملك أيضاً ، ولكن اعتراه شبه شلل أعجزه ، فبقى بمكانه لا يقوى على التحرك .

وحينئذ تقدم إليه اسبينيشت زعيم الملائكة ، ودعاه إلى أن يهدأ وتطمئن نفسه ، وأنبأه أن حياته على سرير ملكه ستطول ، وأن دولته ستظل قوية عزيزة الجانب ، ما دام مستمسكا بدين أهورامزدا ، الدين الذى أتى به زرادشت . أما إذا ضل وفجر ، ومكر واستكبر ، وتردد فى عقيدته ، ولم يخلص فى نشرها فإن حياته ستؤذن بالزوال ، وإن دولته ستنتهى إلى خراب عاجل ، وأن أمره سيؤول إلى خزى فاضح فيسخر منه أعداؤه ، ويشمت به جيرانه .

عندئذ تمكن فى قلب كشتاسب الإيمان بزرادشت ، والاطمئنان إليه ، وتحولت شخصيته تحولا غريبا ، فلصقت مقلتاه بموقيهما ، وبقيت حواسه الأخرى معطلة ، وبقى هو كأنه جثة هامدة عاجزة عن التحرك .

وفيما هو كذلك إذا بنور وهاج يمر أمام عينيه ، ويقذف فى قلبه ، وإذا بروحه تسمو وتصفو ، وتستعد لتلقى التهذيب الروحانى . وبأمر ربانى وإشارة إلهية يقدم إليه الملك شاواهيشت كأساً من ماء الحياة . ويسقيه منها ، فيرى رأى العين فى سهولة ووضوح أرواح الخير ، والحور العين ، وأشياء أخرى كثيرة لم تخطر بباله من قبل ، ولا نظير لها فى الحياة الدنيا .

نعم إن الملك آمن من قبل بالدين الجديد ، ولكن بعض شوائب من ظلمات الاعتقادات القديمة الفاسدة كانت لا تزال منزوية فى أركان قلبه ، فكانت هذه العناية الربانية سبباً فى أن يذهب عنه ما بقى من ظلمات الشرك ، ويحل محله نور الإيمان .

ثم دنا المَلَك نفسه من الملكة ، وسقاها قدراً من ماء الحياة نفسه ، فأحست بعد تناوله إحساسات غريبة ، فسمت روحها ، وطهر قلبها من أدران الاعتقاد بأهرمن ، وامتلأ إيمانا بأهورا مزدا .

وقدم زرادشت إلى بشوتن — أحد أبناء كشتاسب — قدحا من اللبن فشربه ، فحلت به روح الحياة الأبدية .

وقــدم إلى جاماسب وزير كشتاسب قدرا من عبير الجنة فشمه فاشرقت على نفسه أنوار العرفان ، واطلع على أسرار الماضى والحاضر والمستقبل .

وأرسل أهورا مزدا إلى إسفنديار بن كشتاسب بهدية جميلة هى تفاحة من تفاح الفردوس ، فما إن أكلها حتى صار جسده كالحديد الصلب الجامد ،

ومن ثم أخذ على نفسه العهود والمواثيق أن يفرغ للدفاع عن دين زرادشت ، بكل ما لديه من قوة وبأس ، وأن يشعل النار المقدسة فى كل مكان .

على هذا النحو تحققت جميع رغبات كشتاسب الأربع ، فزادت نفسه اطمئنانا ، وآمن إيمانا تاما بأن زرادشت صادق فى دعوته ، مخلص فى رسالته .

وكانت تلك المعجزات الباهرات المتوالية كافية لأن يقتدى بالملك الملكة وسائر أفراد الأسرة المالكة ، والحاشية ، وأركان الدولة ، وقادة الجيش . فيدخلوا فى دين شت آشو زردشت نبى قدام الإيرانيين [١] .

وكان فى مقدمة من اعتنقوا الدين الجديد من حاشية الملك رجلان قدر لهما أن يكونا الحواريين العظيمين المخلصين للزرادشتية ، المجاهدين فى فى سبيل نشرها والدفاع عنها ، وهما جاماسب وزير الملك ونجيه ، وفراشا - أوسترا وزير الملك الثانى وأخو جاماسب .

وقد رأى زرادشت أن يوثق الصلة بينه وبين حاشية الملك بإيجاد رابطة نسب بينه وبين هذين الحواريين ، فزوج أخته بروجيست من جاماسب ، وتزوج هو من أخت فراشا أوسترا أخى جاماسب .

فحين انضمت رابطة النسب إلى رابطة الدين توثقت العلاقة بين زرادشت ووزيرى الملك . ولا ريب أن هذا كان من أسباب سرعة انتشار الزرادشتية ؛ فإن جاماسب الوزير كان عالما غزير العلم واسع الاطلاع ، خبيراً بشئون السياسة ، ماهرا فى الإدارة ، ملما بكثير من الفنون ، وبخاصة فن التنجيم . ويقال إنه كان حسن الخط ، وأنه نسخ بيده عدة نسخ من الأبستاق .

---

(١) زرادشت باستاني وفلسفة أو : ٧٨ — ٨٠ .

ومهما يكن فى هذه التفصيلات من مبالغة أو خطأ فإن الحقيقة التى نستخلصها منها هى ماذكر فى الكاتاها ، أحد أسفار الأبستاق الذى يكاد يكون من المحقق أنه كلام زرادشت نفسه .

وخلاصة ما ورد فى هذا السفر عن هذا الموضوع أن الزرادشتية لم تلق تأييداً من كشتاسب وأفراد أسرته فحسب ، بل إنه قد آمن بها أيضا كثير من العظماء ، وأركان الدولة ، وآلاف مؤلفة من أفراد الرعية . وأن هؤلاء لم يقفوا عند مجرد الإيمان بهذا الدين ، بل إنهم سعوا سعيا جديا متواصلا فى نشره ، والدفاع عنه ، فى قوة إيمان ، وصدق عزيمة .

الفصل العاشر

انتشار الزرادشتية

١ ــ لا ريب أن دخول كشتاسب فى الزرادشتية كان فى مقدمة الأسباب التى أدت إلى انتشارها ؛ فقد كرس هذا الملك جهوده فيما بقى من سنى حياته لتأييد زرادشت ونشر دينه فى جميع أنحاء مملكته ، وبناء بيوت النار فى جميع أرجاء إيران ، وفى بلاد الهند أيضا كما روى الثقات من مؤرخى العرب .

ويقال إن زرادشت قد برهن على اغتباطه بإيمان الملك بأن غرس شجرة من أشجار السرو أمام معبد النار فى كشمار (كشمير) . وقد نمت هذه الشجرة وطالت ، وكان لها ظل وارف مديد يستظل به جميع من يفدون عليها ، وكان امتداد ظلها فى جميع الأنحاء المجاورة لها رمزاً لانتشار الدين الجديد فى جميع أنحاء الإمبراطورية الإيرانية .

وإننا نجد فى أحد أسفار الأبستاق كثيراً من عبارات المدح والثناء على هذا الملك ، ومن ذلك ماترجمته بشىء من التصرف :

« لقد كان هذا (الملك) ، هو الذى صار لدين زرادشت ـ دين أهورا مزدا ـ اليد (اليمنى) والسناد (المقدس) » .

« لقد كان هو الذى أنقذ (هذه) الديانة من السلاسل » فقد كانت مكبلة بالأغلال لا معين ولا ناصر ، (فرفع الملك شأنها) وجعل لها مكانة

(سامية) بين الأمم ، فصارت قوية ، رفيعة القدر ، عظيمة الشأن ، وسارت فى طريق التقدم . »[1]

ولما أحرز زرادشت هذا النصر العظيم ، الذى كان أعظم نصر لدين أهورامزدا ، أخذ ـ وهو فى أشد حالات الغبطة والسرور ـ ينشر الزرادشتية فى جميع أنحاء إيران .

ولم يكن فى جهاده هذه المرة وحيداً كما كان من قبل ، بل كان من ورائه ملك البلاد وقادة جيشها . وكان هذا الملك كما قلنا من قبل متحمسا للدين الجديد ، حريصا فى عزم وحزم ، وثقة وإيمان ، على أن ينتشر ، لا فى جميع أرجاء مملكته فحسب ، بل فيما وراء حدودها من البلاد المجاورة لها .

٢ — وقد كان من الطبيعى بعد ذلك أن تسارع رعية الملك جميعا إلى الدخول فى دينه . وهذا هو ماحدث فعلا؛ فقد جاء الناس أفواجاً أفواجاً ، زرافات ووحدانا من جميع أنحاء إيران إلى بلخ ، يبتغون اعتناق الدين الجديد ، والانضمام إلى جيش المدافعين عنه .

ويؤخذ مما رواه بعض مؤرخى العرب أن كشتاسب سلك سبيل العنف والشدة فى نشر الدين الجديد؛ فقد « قهر الناس على اتباعه ، وقتل منهم خلقاً كثيراً حتى قبلوه ودانوا به[2] » .

وأخيراً تم الأمر لهذا الدين ، وأقيمت هياكل النار فى كل مكان فى إيران ، ووفد الناس من كل حدب يحجون هذه الهياكل ، ويتلقون التعاليم الدينية من الهوابذة القائمين عليها .

ويروى أن الوحى نزل على زرادشت بعد هذا النصر العظيم ، ينبئه بمصير عقيدته ، ويبشر بظهور السيد المسيح عيسى بن مريم ، وأن زرادشت

---

(١) راجع Oriental Philosophy, By F. Grant P. 223

(٢) تاريخ ابن الأثير : ١ — ١٠٠ .

سافر إلى بابل وبلاد اليونان ، وأن فيثاغورس فيلسوف اليونان دخل فى الزراشتية .

كما يروى أن كثيراً من الدعاة انتشروا فى البلاد المجاورة لإيران، يبشرون بالدين الجديد ، ويدعون الناس إلى الدخول فيه .

٦ — وبهذه الوسيلة وصلت دعوة زرادشت إلى تلك البلاد ، وسمع أهلها معجزاته ، فسارعوا إلى الدخول فى دينه ، وكان من هؤلاء كثير من الطورانيين الذين وفدوا على زرادشت ، واستمعوا إلى أحاديثه ، وإلى ماتلاه عليهم من كتابه المقدس فآمنوا به .

وكان من الوافدين على زرادشت موبذ البراهمة المسمى كنكرانغاكه . Cangranghacah ، الذى بلغته دعوة زرادشت ، وسمع بمعجزاته ، وإيمان كشتاشب به ، فهاله الأمر ، وكتب إلى الملك أنه يود أن يقدم عليه ليعرف عن كثب أخبار زرادشت . فرحب الملك بذلك وحضر الموبذ وقد أعد عدة أسئلة ليوجها إلى زرادشت .

ويروى أن أهورا مزدا أوحى إلى زرادشت هذه الأسئلة والإجابة عنها ، فكان من السهل عليه أن يجيب عنها بعبارات بليغة واضحة ، فأعجب به الموبذ ، ولم يقم من مقامه إلا وقد أعلن إيمانه بزرادشت ورسالته .

وبعد أن دخل كشتاسب الملك فى الزرادشتية ببضع سنين وفد على زرادشت فيلسوف يونانى اسمه توتيانوس للغرض نفسه الذى من أجله وفد عليه موبذ البراهمة الآنف ذكره . وقد روى فى أمر فيلسوف اليونان ماروى فى أمر موبذ الهندوستان ؛ وهو أن أهورا مزدا أنبأ زرادشت بطريق الوحى أن رجلا أجنبياً سيفد عليه ليوجه إليه كذا وكذا من الأسئلة ، وان الأجوبة عن هذه الأسئلة هى كيت وكيت . وكانت النتيجة هى النتيجة

السابقة نفسها ، وهى أن فيلسوف اليونان آمن بزرادشت كما آمن به من قبل موبذ الهندوستان .

وقيل إن هذا الفيلسوف أقام عند زرادشت مدة يجادله ويناقشه ، ويتعلم منه شتى العلوم والمعارف ، ثم استأذنه فى العودة إلى بلاده ، ليذيع فى قومه الدين الجديد ، ويدعوهم إلى اتباعه والإيمان به[1] .

(١) زرادشت باستانى وفلسفة أو ؛ ٨٤ — ٨٥ .

الفصل الحادي عشر

الأبستاق القديم

١ — هو الكتاب المقدس لدى الزرادشتيين ، أتى به زرادشت ليكون مرجعاً لأتباعه يرجعون إليه لمعرفة عقائدهم وأحكام شريعتهم . وهو يتضمن مع ذلك ما يكاد أن يكون تاريخاً للزرادشتية ، ووصفاً لحياة زرادشت فى كثير من مواقف حياته . ويسمى بالعربية[1] أبستاق أو وستاق ، وبالسريانية ، أبستاكا ، وبالفارسية الحديثة أبستا أو أوستا ، وقد سمى فى نقوش صخرة بهيستون « أبستام » ، وفى الفهلوية (الفارسية المتوسطة) أوستاك (أو أبستاك فى رأى دار ميستيير) .

وقد أشار اليه الطبرى وذكر أنه كتب فى جلد اثنى عشر ألف بقرة ، حفراً فى الجلود ونقشاً بالذهب .

وقال ابن الأثير فى صدد حديثه عن زراشت إنه « صنف كتابا طاف به الأرض ، فما عرف أحد معناه ، وزعم أن لغته سماوية خوطب بها وسماه أشتا . . . [2] وشرح زرادشت كتابه وسماه زند ، ومعناه التفسير ، ثم شرح الزند بكتاب سماه « بازند » يعنى تفسير التفسير . وفيه علوم مختلفة

---

(١) كتاب التاريخ الأدبى لفارس، تأليف العلامة براون : ١ — ٧٨ ، والفهرست لابن النديم ١١٩ ، وكتاب زرادشت باستاني وفلسفة أو : ٩ . وما بعدها .

(٢) هكذا — ولعل هذه الكلمة تحريف لكلمة فستاه التى ذكرها المسعودى .

كالرياضيات وأحكام النجوم والطب ، وغير ذلك من أخبار القرون الماضية وكتب الأنبياء . وفى كتابه : تمسكوا بما جئتكم به إلى أن يجيئكم صاحب الجمل الأحمر . يعنى محمداً صلى الله عليه وسلم .

وأفاض المسعودى فى وصف هذا الكتاب كما أفاض فى الحديث عن زرادشت حيث يقول . والأشهر فى نسبه (أى نسب زرادشت) أنه زرادشت بن اسبيمان ، وهو نبى المجوس الذى أتاهم بالكتاب المعروف « بالزمزمة » ، عند عوام الناس ، واسمه عند المجوس فسياه (فستاه ؟) ، وأتى زرادشت عندهم بالمعجزات الباهرات للعقول ، وأخبر عن الكائنات من المغيبات قبل حدوثها من الكليات والجزئيات . »

« والكليات هى الأشياء العامة ، والجزئيات هى الأشياء الخاصة : مثل زيد يموت يوم كذا ، ويمرض فلان فى يوم كذا ، ويولد فلان فى وقت كذا وأشباه ذلك . »

« ومعجم هذا الكتاب يدور على ستين حرفا من حروف المعجم ، وليس فى سائر اللغات أكثر حروفا من هذا . »

« وأتى زرادشت بكتابه هذا بلغة يعجزون عن إيراد مثلها ، ولا يدركون كنه مرادها . وكتب هذا الكتاب فى اثنى عشر ألف مجلد بالذهب ، فيه وعد ووعيد ، وأمر ونهى ، وغير ذلك من الشرائع والعبادات . »

« فلم تزل الملوك تعمل بما فى هذا الكتاب إلى عهد الإسكندر ، وما كان من قتله لدارا بن دارا ، فأحرق الإسكندر بعض هذا الكتاب ، ثم صار الملك بعد الطوائف إلى أردشير بن بابك ، فجمع الفرس على قراءة سورة (سفر) منه يقال لها اسناد (يسناه ؟) .

« ثم عمل زرادشت تفسيراً له عند عجزهم عن فهمه ، وسموا التفسير زيدا (زندا) ثم عمل للتفسير تفسيراً وسماه بازيد (پازند) . ثم عمل علماؤهم

بعد وفاة زرادشت تفسيرا لتفسير التفسير، وشرحا لسائر ماذكرنا، وسموا هذا التفسير بارد ؟ فالمجوس إلى هذا الوقت يعجزون عن حفظ كتابهم المنزل . »

« فصار علماؤهم وموابذتهم يأخذون كثيراً ممن يحفظ أسباعا من هذا الكتاب وأرباعا وأثلاثا، فيبتدىء كل واحد منهم بماحفظ من جزئه فيتلوه، ويبتدىء الثانى منه فيتلو جزءا آخر، والثالث كذلك — إلى أن يأتى الجميع على سائر الكتاب [1] لعجز الواحد منهم عن حفظه على الكمال . وقد كانوا يقولون إن رجلا بسجستان بعد الثلثمائة مستظهراً يحفظ هذا الكتاب على الكمال. »

ثم يقول المسعودى فى موضع آخر من الكتاب نفسه : —

« وفى أيام مانى ظهر اسم الزندقة الذى أضيف إليه الزنادقة ؛ وذلك أن الفرس حين أتاهم زرادشت بن اسبتمان على حسب ما قدمنا من نسبه فيما سلف من هذا الكتاب بكتابهم المعروف بالنستا (فستا) باللغة الأولى (القديمة) من الفارسية ، وعمل له التفسير وهو الزند، وعمل لهذا التفسير شرحا سماه « البازند » على حسب ما قدمناه، وكان الزند بالتأويل غير المقدم المنزل ، وكان من أورد فى شريعتهم شيئا بخلاف المنزل الذى هو الفستا وعدل إلى التأويل الذى هو الزند قالوا : هذا زندى ، فأضافوه إلى التأويل وأنه منحرف عن الظواهر ، من المنزل إلى تأويل هو بخلاف التنزيل . »

« فلما أن جاءت العرب أخذت هذا المعنى من الفرس ، وقالوا «زنديق» وعربوه والثنوية هم الزنادقة ، ولحق بهؤلاء سائر من اعتقد القدم وأبى حدوث العالم . » [2] .

---

(١) مروج الذهب عـلى هامش نفح الطيب ١ — ٢٨٧ ومابعدها .
(٢) والكتاب نفسه ص ٣١٣ وما بعدها .

وقد ذكرنا هذا النص برمته لأنه يتضمن حديثا مستفيضا عن الأبستاق ، ويشتمل على معلومات قيمة قد نرجع إليها فى أثناء بحثنا فى هذا الموضوع .

ويرى بعض الباحثين (Andreas) أن كلمة أبستاق أو نحوها مشتقة من « أبستا » وهى كلمة فارسية قديمة معناها : سند أو أساس أو معين ، ويقول — استناداً إلى ذلك — إن معنى «أوستا» هو النص الأساسى «Orount Text» وفى ضوء هذا البيان نستطيع أن نقول إن كلمة « متن » أنسب ترجمة لكلمة أوستا .

وقد اختلف المؤرخون فى تاريخ تدوين هذا الكتاب ، وفى تعيين موطنه الأصلى ، وفى اللغة التى دون بها — اختلافهم فى أمر زرادشت نفسه .

ويرجح بعض المحدثين من الباحثين — وفى مقدمتهم جيلدنر [1] — أن ظهور هذا الكتاب لا يمكن أن يكون قبل سنة ٥٦٠ ق م .

ويؤخذ مما ورد فى كتاب دينكرد أنه كان بمدينة إصطخر نسختان للأبستاق ، ضاعت إحداهما بعد إحراق قصر إصطخر ، أما الثانية فبقيت حتى وقعت فى أيدى اليونان عند فتح الإسكندر الأكبر لإيران فأعدموها .

ويرى فريق آخر أنه لم يكن بإصطخر إلا نسخة واحدة أحرقها المقدونيون . ويبدو أن هذا الرأى أقرب إلى الصواب ؛ لأن رواية مؤرخى العرب تؤيدها إذ تقول إن الأبستاق كتب على جلود اثنى عشر ألف ثور أو بقرة (أو معزة كما تقول الرواية الفارسية وهى فى نظرى أصح) .

ويقال إن نسخة أخرى كانت قد أعدت قبل نسخة إصطخر أو بعدها وحفظت بإحدى المدن الشرقية أى بلخ أو سمرقند .

---

(١) Geldiner . اقرأ مقالته عن زرادشت فى الطبعة التاسعة من دائرة المعارف البريطانية (سنة ١٨٨٨) . ولمزيد بيان فى هذا الموضوع راجع كتاب براون الآنف ذكره : ١ — ٩٥ وما بعدها .

ومن المقطوع به أن نسخ الأبستاق القديمة — مهما يكن عددها — قد فقدت بعد فتح الإسكندر لإيران ، وفقد معها كل مؤلف يشتمل على أى جزء من أجزاء الأبستاق . وسبب فقد هذه النسخة (أو النسخ) لا يعدو أن يكون أحد أمرين ، الأول : أن اليونان قد تعمدوا إعدامها ، والثانى أنها فقدت أو طمرت مع ما فقد أو طمر من آثار الإيرانيين ونفائس ذخائرهم بعد تخريب الإسكندر لمدينة برسبوليس بإيعاز من قواده .

وقد يكون السبب الأول هو الأرجح ؛ لما عرف عن اليونانيين من اعتزاز بحضارتهم ، وعدم ارتياحهم إلى بقاء حضارة أخرى تنازعها ، ولما طبعوا عليه من ميل للانتقام من الإيرانيين، ومجازاتهم على ما فعلوا بالآثار اليونانية إبان انتصارهم على اليونان قبل ظهور الإسكندر . وهذا هو السبب فى أن قدامى الإيرانيين ينظرون إلى الإسكندر نظرة حقد وازدراء ، ومن ثم نجد فى الأساطير الزرادشتية أن الإسكندر يوصف بأنه « الإسكندر الرومى الملعون الذى يستهويه الشيطان فيخرب البلاد ، ويسفك دماء الأبرياء ، ويحرق بيرسبوليس عاصمة فارس ، ويقضى على كتب الزرادشتية المقدسة التى قيل إنها كتبت بمداد من الذهب على اثنى عشر ألف قطعة من جلود المعز — وأخيراً يذهب الإسكندر إلى الجحيم بعد أن يقضى على نفسه بنفسه »[1] .

٣ — ويكاد يكون من المتفق عليه أنه لم يبق من أقسام الأبستاق الواحد والعشرين الأصلية إلا جزء واحد هو الكاتاها ، فهو القسم الوحيد الباقى ، ويعد فى الوقت نفسه أقدم ما وصل إلينا من نصوص الأبستاق القديمة .

وقد اختلف الرواة فى تحديد زمن ظهور هذا السفر وفى مؤلفه ؛ فقال فريق

---

(١) قصة الأدب الفارسى للمؤلف ص: ١٨ .

منهم إن مؤلفه هو زرادشت نفسه ، وإنه كان ينشد بصوته ما فيه من ترنيمات .

وقال فريق آخر إن زرادشت ألف معظم هذا السفر وكان ينشده ، أما الجزء الباقى منه فقد ألفه هو أيضاً ولكن بمشاركة بعض خواص أصدقائه وبعض الموابذة .

ويرى عدد قليل منهم رأياً ثالثاً وهو أن هذا السفر يتكون من ثلاثة أجزاء : الأول من تأليف زرادشت وحده ، والثانى تأليفه بمشاركة بعض الخواص من أصدقائه ، والثالث ألف بعد وفاته .

على أنه قد صار من المرجح الآن أن السفر كله من وضع زرادشت نفسه ، وأنه لم يكن للموابذة ولا لغيرهم فضل إلا فى تشكيله ووضعه فى صورته النهائية .

ومما يدل على أن هذا السفر أقدم أسفار الأبستاق :

أولا : أن ألفاظه وعباراته قلما تستعمل فى الأسفار الأخرى ، ومعنى هذا أن هذه الأسفار قد بدىء فى تدوينها فيما بعد حين أوشكت تلك الألفاظ على الانقراض .

ثانياً : أن هذا السفر كتب بأسلوب شعرى سلس سهل لشرح مبادىء وآراء سامية ، وهذا هو الأسلوب الذى كان يتبعه زرادشت ، وتلك هى المبادىء نفسها التى كان يذيعها زرادشت ويكثر من التحدث عنها إبان بدء دعوته .

ثالثاً : أنه يشتمل على كثير من الابتهالات والتوسلات التى يدل تاريخ زرادشت على أنه كان يتضرع بها إلى ربه عقب نبوته ، حينما انصرف الناس عنه ، وانفضوا من حوله ، ولم يستمع إليه أحد ، أى فى السنوات العشر التى تلت نبوته .

رابعاً : أن زرادشت كثيراً ما يحث الناس فى هذا السفر على الاهتمام بالزراعة والعناية بتربية الماشية ، فى حين أن الأسفار الأخرى تكاد تكون خالية من النصائح المتعلقة بهذين الأمرين . والمعروف أن اهتمام زرادشت بالزراعةوما يتصل بها كان من أبرز خصائص دعوته فى عهدها الأول .

فى ضوء هذا كله نستطيع أن نقول :

١ — إن سفر الكاتاها أقدم أسفار الأبستاق .

٢ — إن زرادشت هو الذى ألف هذا السفر بمفرده أو بمشاركة فريق من أصفيائه المقربين لديه .

٣— إن هذا السفر يمثل تمثيلا حقيقياً تعاليم زرادشت التى أذاعهـا وصدرت عن لسانه فى باكتيريا (بختر) .

وقد قلنا فيما سبق إنه لم يبق منأقسام الأبستاق القديم إلا هذا السفر . أما الأقسام الأخرى فقد انقرضت وقضى عليها هى والزرادشتية نفسها ، ولم يبق لهما أثر فى الفترة الممتدة من فتح الإسكندر لإيران سنة ٣٣٠ ق . م إلى عهد فولوجيسيس الأول البارثى (Vologeses) (٥١ — ٧٨ م) ، ويعزى إلى هذا الملك أنه كان فى مقدمة من شرعوا فى تدوين الأبستاق فى صورة جديدة .

وقد اقتفى أثره فى تكملة هذا العمل بجد ونشاط أردشير بن بابك مؤسس الدولة الساسانية (٢٢٦ — ٢٤٠ م) . وليس من البعيد أن تكون نصوص أخرى قد أضيفت إلى هذا الكتاب .

وقد بلغ ما تم تدوينه من قديم الأبستاق وحديثه فى عهد الساسانيين واحداً وعشرين قسما كما كانت عليه فى العصر القديم .

ويزعم ويست West أن هذه الأقسام التى تتألف منها الأبستاق الساسانى تحتوى على ٣٤٧ ألف كلمة ، لم يبق منها فى الأبستاق الموجود الآن إلا حوالى ٨٣ ألف كلمة ، أو نحو ربع الأصل .

الفصل الثانى عشر

٧٢ – الأبستاق الحديث[1]

١ – قلنا فيما سبق إن الإسكندر الأكبر المقدونى هو – على الأرجح – الذى قضى على ما كان بإصطخر أو برسبوليس من نسخ الأبستاق القديم . وبينا المساعى التى بذلت فى سبيل إحياء هذا الكتاب فى عهد البارثيين ، ثم فى عهد الساسانيين .

وقد اختلف الباحثون فى تقدير نسبة ما بقى منه الآن إلى ما كان عليه فى عهد الساسانيين ؛ فمن قائل إن ما بقى منه هو ربع الأصل كما قلنا من قبل ، ومن قائل إنه جزء واحد لا غير من عشرين جزءا[1] .

ويرجع الفضل فى الكشف عن بقايا الأبستاق إلى العلامة الفرنسى أنكوتيل دوبيرن Anquetil Duperron الذى عاش فى أواخر القرن الثامن عشر الميلادى ؛ فقد عثر فى أثناء بحثه فى مكتبة بودليان Bodleian[2] على بعض أجزاء مخطوطة من الأبستاق ، فاعتزم أن يتابع بحثه للحصول على بقية الأجزاء .

ولما زار الهند وعاد إلى فرنسا أحضر معه ترجمة لما عثر عليه من باقى أجزاء الكتاب . ولا تزال هذه الترجمة بالمكتبة الوطنية بباريس ، وتعد أول

---

(١) قصة الأدب الفارسى للمؤلف ص ٤١ وما بعدها .

(٢) راجع كتاب Oriental Philosophy By F. Grant P. 228

(٣) مكتبة جامعة أكسفورد الشهيرة .

ما وصل إلى العالم الأوربى الحديث من معلومات عن هذا الكتاب المقدس لدى الزرادشتيين .

ويتضمن الأبستاق الموجود الآن سفراً واحداً كاملا من الأسفار الواحد والعشرين التى تم جمعها وتدوينها فى العصر الساسانى ، ذلك هو سفر الونديداد الذى سنتحدث عنه فيما بعد ، فى حين أن أربعة أسفار أخرى قد أدمجت فى سفر « اليسنا » .

٢ — وتنحصر الأسفار الموجودة الآن المشتملة على التعاليم الزرادشتية الدينية فى خمسة أسفار هى :

ا — سفر اليسنا Yasna ، وهو قسم الأدعية والصلوات .

ويشتمل على الأدعية والصلوات والترنيمات والأغانى أو الأناشيد الدينية التى كانت ترتل فى مدح مختلف الملائكة ، والكائنات الروحانية ، والكائنات المقدسة . ويتكون هذا السفر من اثنين وسبعين فعلا تسمى «ها» .

وقد أدمج فيه سفر الكاتاها الذى سبق الكلام عليه .

وإليك ترجمة لبعض نصوص اليسنا بشىء من التصرف : .

« النجدة لهذا الإنسان ؛ النجدة له مهما يكن أمره ، ليتفضل علىّ الخالق الأكبر ، والحاكم الأعظم ، الرب الحى ، القوتان الأبديتان ، نعم إنى أتوسل اليك يا أهورا أن تحمى حمى الهداية ، وعسى أن تتفضل علىّ بها : أنت يامن يبعث فى النفوس التقوى التى لها من العظمة ما لها ؛ فهى النعمة المقدسة ؛ وهى حياة العقول الطيبة الصالحة : »

« إنى أتصورك — أيها المعطى الأكبر مزدا — جميلا حينما أشاهد أنك القوة العليا (ذات الأثر الفعال) فى تطور الحياة ، وحينما أرى أنك تكافىء الناس على الأعمال والأقوال »

« لقد كتبت الشر (عقابا) على الشر ، وجعلت السعادة جزاء وفاقا لمن يفعل الخير ، وذلك بفضلك العظيم الذى يظهر أثره » حينما تتبدل الخليقة التبدل النهائى : »

ويتحدث زرادشت فى هذا السفر عن كشتاسب الملك ، ويتوسل إلى أهورا مزدا أن يجزيه هو ومن دخل فى الزرادشتية الجزاء الأوفى على اعتناقهم الدين الجديد ، والسعى فى نشره .

وذلك حيث يقول ما ترجمته بتصرف : .

« مزدا أهورا ! إنى أتوسل إلى بركاتك وكرمك وعدلك أن تكافىء من كانوا السابقين الأولين المسارعين إلى الدخول فى دين أهورا ، وسكنى دار الأغانى القدسية ، وأن يجزيهم الجزاء الذى وعد به زرادشت من يدخل فى دينه ويحفظ عهده . »

« إن الملك كشتاسب قد قبل العقيدة التى أوجدها مزدا أهورا الحق - المقدس ، إنه قبل العهد (الكتاب المقدس) وأقر بحجته ، كما تقبل (الدعوة إلى) طريق الكرم والإحسان ، فليتم هذا طبقاً لمشيئتك . »

« لقد وعدنى فراشا أوسترا أن يهب لى ابنته ذات الصورة الجميلة المحببة إلىّ ، فتفضل أيها الملك العظيم أن تهديها الصراط المستقيم ، حتى تدرك تمام الإدراك معنى السلوك القويم فتصلح به نفسها . »

« ولقد تقبل جامسبا فى تقوى وطهارة هذه العقيدة الكريمة العنصر . وكل من اشترك فى إســـداء الإحسان ، والاتصاف بالكرم فهو مخلص لهذه العقيدة خاضع لسلطانها ، فتفضل — أهورا — بالإنعام عليهم حتى يجدوا فيك حصنا منيعا يحميهم » .

« وهذا الرجل ميتيوماه قد وضع هـذه الطريقة الدينية نصب عينيه

بعد أن أدركت روحه أسرارها . وكل من يدرك حقيقة الحياة وتتجلى له أسرار هذه) الطريقة فسوف يوهب له العلم بمشيئة مزدا ، التى ترشد المؤمن إلى « إصلاح » شئون حياته » .

« تفضل بالوفاء بما وعدت ، فانشر لواء بركاتك على كل من يقرون بأن الاستقامة فى السلوك ، وإسداء المعروف ومزدا شىء واحد ، (وكذلك) على كل من يعبدك أنت يا أهورا ويسبحك ويوقرك » .

ب — (الويسپرد Vispered) .

يتكون هذا السفر من ٢٣ — ٢٧ فصلا تسمى كرده .

وليس سفراً مستقلا قائما بنفسه ، ولكنه يتألف من مجموعة من الترنيمات تشبه ما فى اليسنا تمام الشبه ، وتعد مكملة لها . وترتل هذه الترنيمات فى مناسبات خاصة .

حـ — الونديداد (Vindidàd) أى القانون المضاد للشياطين . ويشبه سفر اللاويين فى التوراة : فإنه يوضح التعاليم التى يخضع لها رجال الكهنوت من الزرادشتيين . ويتضمن وجهة النظر الزرادشتية فى الموت والزواج وغيره من المشكلات الاجتماعية .

ويتكون من اثنين وعشرين فصلا ، يتحدث أولها عما خلق أرمزد من الأراضى المباركة ، واحدة بعد الأخرى ، وعما أوجد أنجرو مينيوس من الأرواح الخبيثة الشريرة معارضا بذلك أرمزد .

ومما يعرض له هذا السفر الأمور المتعلقة بالنجاسة ، والغسل ، والطهارة ونظافة الموتى وتطهير جثثهم ، والتوبة ، وتطهير الملابس والبدن ، وقص الأظفار والشعر .

فقد ذكر فى هذا السفر أنه من الواجب على الإنسان أن يضع قلاماته

أظفاره وقصاصات شعره على منضدة أمامه ، ويحرص عليها كل الحرص ؛ حتى لا يضيع منها شيء ، ثم يحملها بعناية ويخفيها فى حفرة عميقة ، وإلا كانت عرضة لأن تمتد إليها أيدى السحرة والمشعوذين فيستخدموها فى سحر صاحبها .

وتدل هذه التعاليم على تأثر الزرادشتية بعقيدة قديمة مؤداها أن شعر الشخص وأظفاره تتجمع فيها جميع صفاته الشخصية ؛ ولذا كان التأثير فيها بخير أوشر وسيلة للتأثير فى الشخص نفسه .

ولا نزال نرى فريقا من المشعوذين وأتباعهم يتأثرون بهذه العقيدة ، حتى فى القرن العشرين ؛ عصر العلم والمعرفة التى كان ينبغى أن تقضى على هذه الخرافات قضاء تاما .

د — اليشتات أى الترنيمات أو المزامير yashts

وهى إحدى وعشرون ترنيمة منظومة ، تتلى فى مدح الملائكة المكرمين ، والكائنات الروحانية التى يسمى كل منها أنشاسبند Anshaspand أو إيزد ، ويشرف كل منها على يوم من أيام الشهر الثلاثين ، ويطلق عليه اسمه . وكان لكل كائن روحانى من هؤلاء ترنيمة تتلى باسمه . ولأنه لم يبق من هذه الترنيمات إلا واحدة وعشرون فالظاهر أن تسعاً منها قد فقدت ؛ أى أن ما بقى منها هو نحو ثلثى الأصل .

هـ — الخودة أوستا ؛ أى الأبستاق الصغير .

وهو سفر جامع لأدعية وصلوات يتلوها عامة الشعب . وقد دونها فى عصر متأخر الكاهن الزرادشتى آذرپاذ مهرسبند Adharpadh Mahraspand فى عهد أردشير الثانى (٣١٠ — ٣٨٩ م) ، ويتكون معظم هذا السفر من

مختارات من الأبستاق كله وبلغته ، أما الباقى فهو توسلات أو أدعية كتبت بلغة البازند ، وهى لهجة آرامية كانت تستعمل فى شرح الزند [1] .

ويشتمل الخوردة أربعة أجزاء هى : —

(١) الأدعية الخمسة (Njayish) ، وهى أدعيته تخاطب بها الشمس ، والقمر ، وميثرا (Mithra) والماء ، ونار بهرام .

(٢) الكاتاها الخمس .

(٣) أدعية الأيام الثلاثين (سيروزه) الصغرى منها والكبرى .

(٤) أدعية أربعة تتلى طلبا للبركة (آفرينكان Afringan) .

ونجد بالخورده الآداب والفروض الدينية كالدعاة ، والصلاة ، والطاعة . وكذلك العادات التى تتبع فى الأعياد الدينية ، والمباحث المتعلقة بعقد الزواج ، والزفاف وما إليهما .

٣ — وقد أضاف المتأخرون من الزرادشتيين إلى كتبهم المقدسة أسفاراً أخرى منها بندهش Bundahish ، وسفر الأرداويراف .

ونجد فى هذه الأسفار المتأخرة بعض مسائل مكملة للتعاليم الزرادشتية منها : —

١ — أن الإنسان كان فى بداية أمره كائنا مركباً من ثلاثة عناصر هى الجسد الذى يفنى ، والعقل أو القوة المدركة المسماة بالذكاء ، والروح المسماة فراواسى Frawasi ، وتمثل الجزء الروحانى الخالد الذى لا يفنى ، وهو الرابطة التى تربط الإنسان بأهورا مزدا .

---

(١) راجع كتاب براون السابق ذكره ١. ٨١ ، ٨٢

٢ ـ أن عمر العالم يتكون من أربع دورات أو فترات كل منها ثلاثة آلاف سنة : ـ

الدوة الأولى دورة العصر الذهبي السعيد،عصر سيطرة ييما أو جمشيد ، وفيه سيطر أهورا مزدا على الأرض ، وأشاع فيها الخير .

والدورة الثانية هي التي تسيطر فيها الظلمة ، وتحل بالأرض كارثة تغمرها وتعم جميع أطرافها .

والدوة الثالثة هي التي قامت فيها معركة حامية الوطيس بين قوى الخير وقوى الشر ، وكانت الحرب بينهما سجالا غير حاسمة ، إلى أن جاء زرادشت فبدأت الدورة الرابعة ، وفيها يستمر القتال ، ولكن بشائر النصر قد بدت فى الأفق بتغلب جانب الخير على جانب الشر ، تمهيداً لظهور سا أوشيانت Saoshyant المبارك الطلعة ، مسيح الزرادشتيين ، الذى يتم فى عهده انتصار الخير على الشر فى الأرض .

٣ ـ أن الجسد بعد خروج الروح منه يعد مادة بغيضة نجسة ملوثة ؛ ومن ثم يحرم على الناس أن يلمسوا أى نوع من أنواع جثث الموتى ، وأن يحرقوها أو يدفنوها فى الأرض ؛ لأن النار طاهرة مقدسة لا يصح أن تلوث بما هو نجس ، ولأن الأرض مقدسة أيضا ، فإنها مصدر أرزاق الناس وأقواتهم ؛ فلا يجوز أن يودع بطنها تلك الجثث البغيضة الملوثة .

وقد أقيم لجثث الموتى برج منعزل عالى الجدران ، لا سقف له يسمى برج الصمت (دخما . Dekhma) ، تحمل إليه الجثث نهاراً على نعوش من حديد ، ثم تلقى فيه لتأ كلها طيور الهواء ، ومن ثم تفيد الطيور من هذه الجثث التى ليست لها فائدة أخرى .

وكل من يلمس جثة ميتة يعد ملوثاً ، وليس لأحد أن يحمل الجثث أو يلمسها غير طائفة معينة ، وظيفتها إعداد الجثث وحملها إلى برج الصمت .

ولا يجوز أن يستقل شخص واحد بهذا العمل ، بل يجب أن يشاركه اثنان آخران يشهدان عليه . وعلى الثلاثة أن يتطهروا بعد الانتهاء من عملهم ، ولا يجوز لهم مع ذلك أن يختلطوا بالناس .

ومن ثم نرى أن الزرادشتية لا تعتد بالجسد بعد أن تغادره الروح : « الفراواسى »

وتتلى الأدعية والصلوات ثلاثة أيام بعد الموت ، ويخصص اليوم الرابع للصوم ، وذلك لمساعدة الروح فى مرورها على الصراط المسمى « صراط الحساب » .

ومن التقاليد الزرادشتية المترتبة على الاعتقاد بأن جثث الموتى نجسة أنه إذا مرت جثة بأحد الطرق العامة فإنه لا يجوز لأحد أن يسير فيه إلا بعد تطهيره . ومن وسائل تطهيره تلاوة دعاء آهونا ، أو دعاء آخر يعد أشد الأدعية تقديساً وهو دعاء كنا مزدا Kemna mazda وترجمته :

« مزدا ! من يستطيع أن يحمى شخصاً ضعيفاً فانيا مثلى حينما يستعد الكافرون للاعتداء علىّ ؟ أى كائن آخر غيرك — بما لك من عقل وقوة نارية — يقوى نشاطه على تنفيذ مبدأ التقوى والاستقامة ؟ مزدا ! اكشف لى عن أسرار هذه المعرفة كى تساعدنى على نشر دينك . »

« من غيرك يقدر على لطم الأعداء ، ويمدنى بكلماتك الصادقة التى هى درعى والمجن الذى يحمينى ؟ دلنى — مزدا — على قائد مخلص حكيم

متلطف يقودنى إليك ، ثم اجعل زعيم ملائكتك المزود بالعقل الخير المستنير يدنو ممن تحب كائنا من كان » .

« تفضل فاحمنا جميعا من أعدائنا أيها الإله المقدس مزدا ! وهلاكا لإدرج[1] الشيطانى ، وهلاكا لجميع الشياطين ! وهلاكا لجميع أشياع الشياطين ! الهلاك التام لك يا إدرج ؛ ألا بعداً تاما لك يا إدرج ! إخسأ ، واذهب بعيداً عنا إلى الشمال حتى لا تعبث بخلق مزدا ، المبدأ المقدس . »

« إلىّ أيها الاحترام المقدس ! إلىّ أيتها الحماسة المقدسة »

٤ — وقد دعا هذا الغلو فى ازدراء الموتى إلى أن يحرم زرادشت الانتحار ، ويعده أبشع الأعمال التى يتناولها الإنسان ؛ ذلك لأن الانتحار جريمة ضد أهورا مزدا ؛ فإن من ينتحر يقلل عدد المجاهدين فى سبيل الحق ، وحركة الجهاد ضد قوى الشر فى أشد الحاجة إلى كل من يستطيع أن ينضم إلى معسكر الخير . وهو أيضا جريمة ضد المثل الروحانى الأسمى ؛ لأن من ينتحر يطفىء نار التحمس للحق المقدسة الكامنة فى نفسه .

وليس كل فرد مطالبا بالمحافظة على حياته فحسب ، بل إنه مطالب أيضا بأن يواظب على إبقاء شعلة التحمس مشتعلة فى نفسه ، كما يواظب الكهنة على إبقاء النار المقدسة فى دور النيران .

ولا ريب أن هذا الإلحاح الفعال فى المطالبة بإيقاظ شعور الإنسان بالواجب المقدس ، وإشعال نار التحمس للحق فى نفسه ميزة بارزة تمتاز بها التعاليم الزرادشتية كلها ، وتجعلها من أسمى التعاليم الإنسانية ؛ ذلك لأنها توجب أن يبقى الإنسان قوة حيوية نشيطة ، وأداة حية فعالة فى نشر الخير ، ولا ترضى له بأن يقف من بيئته موقفا سلبيا مستكينا ، وإنما توجب أن يكون جنديا عاملا نشيطا ساعيا فى سبيل الحق والعمل الصالح .

---

(١) إدرج Druj رمز لقوى الشر مجتمعة .

الفصل الثالث عشر

الديانة الزرادشتية

١ — نجمل فى هذا الفصل الحديث عن الديانة الزرادشتية كما نجدها فى كتب المتقدمين والمتأخرين من أتباع زرادشت .

لقد ذكرنا فيما [1] سبق ما يفيد أن الديانة التى أذاعها زرادشت ديانة جديدة إلى حدما أتى بها ذلك الرجل فرده ؛ فإنه بعد أن فكر تفكيرا عميقا طويلا متواصلا فى مشكلات الوجود عامة ، ومشكلات الإله والروح بوجه خاص ، وصل إلى حل هذه المشكلات بطريق الوحى اللدنى .

وقد كان من الطبيعى — كما ذكرنا من قبل أيضا — أن يجعل العقائد القديمة التى شاع أمرها بين الآريين عامة وبين الإيرانيين خاصة بداية لديانته الجديدة ، ومن ثم يجعل من آرائه الخاصة وبعض تلك التقاليد القديمة نظاما دينيا منسجما مطبوعا بطابع شخصيته .

لقد نشأ زرادشت فى أحضان شعب من الوثنيين أو الصابئة الذين اتخذوا من الظواهر الطبيعية البارزة آلهة يعبدونها ، كما كان يفعل أجدادهم الآريون القدماء ، وكما كان يفعل جيرانهم وأبناء عمومتهم قدامى الهنود ، وكذلك كما كانت تفعل بعض الشعوب السامية فى حوضى دجلة والفرات ، الذين نشأ بينهم الخليل إبراهيم ، ونعى عليهم وثنيتهم وعبادتهم الكواكب .

وكان الشعب الايرانى وبخاصة من كانوا يسكنون الجزء الشرقى من إيران شعباً بدويا يعنى أكثر ما يعنى بتربية الماشية ، ويتصف بكثير من صفات

---

(١) ص : ٢١ من هذا الكتاب .

أهل البادية ، الذين تدعوهم حياتهم بطبيعتها إلى الإغارة والسلب والنهب ، وسفك الدماء فى سبيل الحصول على أقواتهم وكلأ ماشيتهم .

٢ — ولما كان زرادشت بعيد النظر عميق التفكير، ماهراً فى فن التنجيم — كما يقول أفلاطون وغيره من قدماء المؤرخين فقد استنكر وثنية شعبه ، ونعى عليهم ما انطوت عليه حياتهم الهمجية من فساد خلق ، ووقر فى نفسه أن يهب لإصلاح هذا الفساد ، وينصب نفسه نبيا مرشدا يهدى قومه إلى طريق الحكمة والصواب .

وإن من ينظر فى العقيدة الزرادستية الخاصة بالإله نظرة فاحصة دقيقة . هادئة مجردة من شوائب الهوى والتعصب ، مشبعة بروح العطف والتقدير يجد أن أبرز مظاهر الدعوة الزرادشتيه تتجلى فى دعوة الناس إلى أن يعبدوا إلها واحدا ، ويهجروا الوثنية والصابئية التى كانت تتمثل فى عبادة بعض الكواكب وغيرها من القوى الطبيعية ، تلك الوثنية التى كان قد شاع أمرها بين الآريين منذ القدم .

ونستطيع أن نبرهن على صحة هذه الدعوى بوثائق رسمية منها الأبستاق نفسه ، وبخاصة سفر الكاتاها الذى نجد فيه أن اسم أهورا مزدا بالذات يذكر مئات من المرات ، وأن هذا الاسم على اختلاف صوره مثل : مزدا أهورا أو مزدا ، أو أرمزد ، أو أهورا مزدا يطلق دائما على الذات الإلهية الأحدية ، وأن زرادشت نفسه لم يأبه بآلهة قدامى الإيرانيين، ولم ينطق باسم واحد من هؤلاء متوسلا به أو متضرعا إليه . فمن شأن هذا كله أن يجعلنا نميل إلى الاعتقاد بأن زرادشت الحكيم لم يعتقد بوجود خالق قادر غير أهورا مزدا، الذى كان يتوسل به ، ويتضرع إليه كلما حز به أمر ، أو أصابه سوء .

ومما يؤيد هذا الرأى معنى «أهورامزدا» نفسه ، فإنه مركب من ثلاث

كلمات هى «أهو» ، و«را» و«مزدا» ، ومعناها على الترتيب : أنا — الوجود — خالق ، أو أنا مفيض الوجود أو خالق الكون .

ولو نظرنا فيما فرضه زرادشت على أتباعه من واجبات دينية ، كالأدعية والصلوات التى تتلى فى شتى المناسبات لوجدنا فى كل منها دليلا قاطعاً على أن العقيدة الزرادشتية أو المزدية هى فى أساسها ديانة توحيد ، أى اعتراف بوجود إله واحد .

أما ما شاع بين المفكرين من أن أهورا مزدا وأهريمن يعدان لدى الزرادشتيين إلهين اثنين متضادين فهو — كما يقرر بعض المحققين — من اختراع المتعصبين أو الجهلة ، ولا أساس له من الصحة .

وقد يكون السبب فى هذه العقيدة الخاطئة أن هؤلاء الباحثين قد جهلوا حقيقة العقيدة الزرادشتية ، التى ظل أمرها مبهما غامضاً ، فعرضوها عرضا خاطئا ، وأخذوها عن روايات شفوية لا تستند إلى وثائق رسمية مدونة . ويمثل هذا الرأى فريق من المستشرقين منهم كاونتز الذى يقول فى كتابه فى تاريخ الفلسفة ما خلاصته (1) :

« وتقوم الزرادشتية على القول بوجود مبدأين اثنين هما مبدأ الخير والنور ، ويمثله أرمزد أو أهورا مزدا ، ومبدأ الشر والظلام ويمثله أهريمن . وكان كل من هذين الكائنين يقيم فى ناحية ما من نواحى العالم ، بعيدا عن الآخر لا يعلم عنه شيئا . ولما علم كل بوجود الآخر نشأت بينهما عداوة وبغضاء أدت إلى صراع .

وقد بدأ أرمزد بخلق أرواح طيبة تنسجم مع طبيعته ليستعين بها فى مقاتلة أهريمن ، وعلم أهريمن بذلك فخلق أرواحا شريرة من جنسه ليقاوم بها الأرواح الطيبة أو أرواح الخير التى خلقها أرمزد » .

(1) Apopular History of Philosophy By. M. Kaunitz P. 45

« ثم خلق أرمزد النجوم والكواكب والأرض . ولما انتهى من خلق الأرض جعلها حاجزا بينه وبين أهريمن وأعوانه ، ولكن أهريمن شق الأرض وأحدث فيها ثقبا أو فجوة جمع فيها أعوانه الأرواح الشريرة ؛ ومن ثم صارت الأرض ميدانا للصراع بين القوتين ، وخلق أرمزد زرادشت ليستأنف هذا الصراع » .

« ويبدو أن زرادشت قد أخذ اسم إلهه « أهورا مزدا » من اسم إله الأشوريين وهو : اسارا مازاش Assara Mazdaash ، وأنه جعل الشمس في السماء رمزا لنور مزدا المتلألئ ، والنار في الأرض رمزا لطهارته وصفاء طبيعته » .

وجدير بنا أن نذكر مع هذا أن اسم أهريمن — الذي هو في الأصل « انكره مينو » ومعناه الخبيث — لا يذكر في الكتب المقدسة لدى الزرادشتيين في مقابل أهورا مزدا على أنه مضاد أو شريك له في الخلق والملك ، ولكنه يذكر دائماً في مقابل « اسبنتا مينو » ، ومعناه القدسية ؛ فالأصلان المتعارضان ليسا هما أهورا مزدا وأهريمن ، وإنما هما « اسبنتا مينو » و « أنكره مينو » أي القوة الخبيثة ، والقوة المقدسة .

« وقد يكون العلامة الشهير ستانى في مقدمة علماء المسلمين المؤيدين لهذا الرأى ، أى رأى القائلين بأن الزرادشتية ديانة توحيد ؛ ذلك أنه يقول في كتاب « الملل والنحل » ما نصه[1] :

« وكان دينه (أى دين زرادشت) عبادة الله ، والكفر بالشيطان ، والأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر ، وذلك هو سبب الخلاص » . ويقول في موضع آخر من الكتاب نفسه[2] :

---

(١) الملل والنحل السابق ذكره : ٢ — ٧٧ .

(٢) ص ٧٩ . من المرجع نفسه .

« والبارى تعالى هو (الذى) مزجهما (النور والظلام) ، وخلقهما لحكمة رآها فى التركيب ، وربما جعل النور أصلا ، وقال : وجوده وجود حقيق ، وأما الظلمة فتبع ، كالظل بالنسبة إلى الشخص ، فإنه يرى أنه موجود وليس بموجود حقيقة . فأبدع النور وجعل الظلام تبعاً له ، لأن من ضرورة الوجود التضاد ، فوجوده ضرورى واقع فى الخلق ، لا بالقصد الأول ، كما ذكرنا فى الشخص والظل » .

٤ — فليس فى العقيدة الزرادشتية إلهان ، وإنما هناك قوتان أو مجموعتان من القوى متضادتان ، الأولى : مجموعة قوى الخير والنور ، والحياة والحق ، والأخرى : مجموعة قوى الشر والظلام ، والموت ، والخداع .

وفى مقدمة المجموعة الأولى يقف روح القدس اسبنتا مينو ، ويساعده أنصاره القوى الستة وهى الفكر الطيب ، والنظام الجيد ، والملكوت الأعظم ، والشخصية المقدسة ، والصحة ، والخلود .

ويتبع هذه الستة مجموعة من سبعة ملائكة قدسيين يمثلون الفضائل السبع العليا وهى : —

« الحكمة ، والشجاعة ، والعفة ، والعدل ، والإخلاص ، والأمانة ، والكرم » .

وفى مقدمة المجموعة الثانية يقف روح الشر والخبث أنكره مينو ، ويعاونه سبع من القوى الشيطانية الخبيثة المتمردة ، تمثل الرذائل الإنسانية الرئيسة ، وهى : النفاق ، والخديعة ، والخيانة ، والجبن ، والبخل ، والظلم ، وإزهاق الأرواح » .

وبين هاتين الطائفتين من قوى الخير وقوى الشر صراع دائم ، ونزاع لا ينقطع ، وحرب أبدية ؛ إذ أن كلا منهما ترمى إلى السيطرة على العالم

الإنسانى . وفى وسط هذا النزاع الدائم ، وفى ميدان تلك الحروب المستعرة الأوار ينهض زرادشت ، ويذيع فى الناس مبادىء ديانة ليست هادئة سلبية مستسلمة ، تذعن لقوى الشر والظلام ، ولكنها ديانة إيجابية نشيطة ، قوامها : الجهاد والصراع فى سبيل إخضاع قوى الشر .

٥ — وتعلن هذه الديانه أن على الإنسان واجبا أبدياً هو أن يشهر حرباً لا هوادة فيها تحت لواء قوى الخير ، وأن يظل يجاهد ويصارع أعداءها قوى الشر ، لكى يصرعها ، ويقضى عليها القضاء النهائى فى آخر الأمر . ولا سبيل إلى هذا النصر النهائى إلا سبيل اليقظة المثمرة ، والتحفز الدائم ، والجهاد الدائب .

ولذا يهيب زرادشت بأتباعه أن يعقدوا العزم على اختيار أحد الطريقين : طريق الانضمام إلى قوى الخير ، وطريق الانتماء إلى شياطين الشر ، ويبين لهم أن أى تقصير فى اختيار مناصرة النور ، والإسراع إلى مقاومة عناصر الشر مقاومة جدية نشيطة فعالة — يعد فى نفسه استسلاماً لقوى الظلام الهدامة . وذلك بمثابة إنذار صريح لكل من يتراخى فى جهاده فى سبيل الخير ، أو يقف موقفاً سلبيا من مقاومة عناصر الشر .

وعلى من يختار طريق الخير أن يضع نصب عينيه الأمر المقدس الأسمى ، الذى هو أول الأوامر وأولاها بالطاعة ، ذلك هو الخضوع التام لأهورا مزدا ، إله النور الأعلى ، والمبدأ الأول الخالد ، الأسمى ، الذى لا يستطيع النقص أن يجد إلى ذاته سبيلا ، وهو خالق جميع الكائنات وعلى رأسها الإنسان ، الذى يحتل بين المخلوقات أعلى الدرجات ، ويمتاز بما ركب فيه من روح خالدة مريدة حرة .

وعلى من يختار طريق الخير أيضا أن يتحرى الصدق ، ويقاوم الكذب ،

وهذا يتحقق حينما يخضع للقانون ، ويتبع النظام الصحيح ، وحين يخلص فى تربية مواشيه ، وزرع حقوله — على العكس من الفوضويين من أهل البدو ، وحين يعلن الحرب على كل من يجنح إلى الشر ، أو إلى إلحاق الضرر بالناس ، أو يعبد الشياطين ، وحين يحمى مخلوقات أهورا مزدا النقية الطاهرة ، ويخلصها من جميع أدران الخبث والرجس ، وبخاصة النار ، وكذلك التراب ، والماء ، والهواء .

وفوق هذا كله يجب على أنصار النور أن يتحروا كل ماهو صحيح صادق من الأقوال والأفكار والأعمال .

وبقدر أعمال المرء فى حياته الدنيا يكون جزاؤه فى الحياة الأخرى يوم الدين ، حينما يجد من الضرورى أن يعبر صراط الحساب ، فيقوده عمله إما إلى فردوس أهورا مزدا ، وإما إلى جهنم التى سيلقى فيهـا أهريمن وأتبـاعه .

٦ — ولما كان من تعاليم زرادشت وعقائده الإلهية أن أهورا مزدا قوة روحانية عليا مجردة من جميع شوائب المادة ، منزهة من جميع أدران النقص ، لا يقدر على إدراكها على حقيقتها عقل بشرى ، ولا يستطيع استحضارها على صورتها الواقعية خيال إنسان ، ولما كان يعلم أنه ليس فى طاقة كثير من الناس أن يصلوا إلى تلك المرتبة الراقية ، وهى عبادة قوة روحانية محضة مجردة من شوائب المادة — فقد رمز إلى هذه القوة الغيبية الخفية — التى لا تدركها الأبصار ، ولا تحيط بكنهها العقول ، ولا يقوى على تصورها الخيال — برمزين ماديين مشاهدين تقوى عقول الجماهير من أتباعه على إدراكهما ، ويستطيعون بالتفكير فيهما تصور صفات أهورا مزدا على وجه التقريب . هذان الرمزان هما : الشمس ، والنار ؛ فالشمس تمثل روح أهورا

مزدا فى صورة يستطيع الناس إدراكها ؛ ذلك لما امتازت به من صفات تشبه صفات المبدأ الأول : فإنها كائن مشرق متلألىء ، يفيض الخير على جميع الكائنات ، ويبعث فيها النشاط والدفء . وهى قوة لا تقاوم ، ولا تستطيع نزعات الشر الاقتراب منها ، والحط من قدرها ، والنقص من طهرها وصفائها .

هذا فى السماء . أما فى الأرض فيمثل للناس تلك القوة العليا عنصر النار ، إذ أنها ليست عنصرا أوليا ساذجا أبديا أزليا فحسب ، ولكنها أيضا قوة مطهرة مهلكة طاهرة ، نقية ، نافعة ، لا يمكن أن يتطرق إليها الفساد .

ومن ثم يظهر لنا أن الزرادشتية لاتدعو — كما يزعم بعض الناس — إلى عبادة النار على أنها كائن حى مزود بحياة وروح ، بل إنها تدعو إلى تقديس هذين العنصرين ، عنصر الشمس وعنصر النار على أنهما رمزان ليس غير لتلك القوة الواحدة التى لا تفتأ تفيض نوراو رحمة ، وعطفا وطهوا ، وتعمل على إنقاذ الإنسان من البلاء .

وإن الزرادشتية — مع هذا كله — لتعد الوثنية والإشراك الجريمة الكبرى ؛ لأنها تتضمن إنكار مبدأ وحدة الواحد أهورا مزدا .

٧ — وتكاد الطقوس والتعاليم الدينية الزرادشتية تدور على محور واحد هو تقديس النار ؛ فقد حمل زرادشت أنصاره تبعة الاحتفاظ بالشعلة النارية مضطرمة بالمعنيين الرمزى الروحانى ، والحرفى المادى معا ؛ ولذا كان من الواجب عليهم أن يطيعوا هذا الأمر ، ويظلوا يوقدون النار الخالدة ، ويجعلونها تتأجج فى صدورهم ومعابدهم .

وكان زادشت نفسه - فى أثناء سنوات رسالته — يجول فى البلاد ليقيم هياكل النار ، فكان يحمل الشعلة الموقدة من هيكل إلى آخر .

وكان من عادات الزرادشتيين — إذا أقاموا هيكلا جديداً للنار أن يحملوا إليه من كافة النواحى شعلات موقدة ، وأن يبالغوا فى تطهير هذه

الشعلات بطريقة معينة ، فيقتبسوا من كل شعلة ثانية ، ومن الثانية ثالثة — وهكذا ، حتى يصلوا إلى الشعلة التاسعة ، وبتلك الشعلات التي تصل إلى منتهى ما يمكن من الطهارة والصفاء يوقدون نار الهيكل الجديد .

وما إن توقد النار فى هيكل حتى يصير من أهم الواجبات وأقدسها على رجال الكهنوت أن يعملوا دائبين على إبقاء هذه النار مشتعلة ، فيأتوا إلى الهيكل خمس مرات فى اليوم ، ليقدموا إلى النار وقوداً من خشب الصندل وغيره من المواد العطرية ، فتنتشر فى الهيكل رائحتها الزكية . وليتلوا كل مرة عبارات دينية يدعون بها الناس إلى التفكير فى الخير ، والكلام الطيب ، والعمل الصالح ـ وتسمى هذه النصائح بالجواهر الثلاث التى تتضمن ـ على إيجازها ـ كثيرا من الفضائل والآداب ؛ كالأمانة ، وحسن المعاملة ، والعفة ، والطهر ، والإحسان إلى الفقراء ، والعطف على الغرباء .

وقد ذكرت هذه النصائح فى العهد الزرادشتى ؛ ذلك أن من يدخل فى الزرادشتية يجب أن يأخذ على نفسه عهدا مدونا جميعه فى الأبستاق ، وينتهى بالعبارة الآتية :

ولن أقدم على سلب أو نهب ، أو تخريب أو تدمير ، أو أخذ بالثأر ـ أقر أنى أعبد أهورا مزدا ، وأعتنق دين زرادشت ، وألتزم التفكير فى الخير ، والكلام الطيب ، والعمل الصالح .

وقد بالغ الزرادشتيون فى تقديس نار الهيكل ، فأوجبوا على القسيس أن يتلثم عند اقترابه من النار خشية أن يصل نَفَسه إليها فيلوثها . وكان عليه أن يتذكر حينما يدنو من هذه القوة الأرضية ـ التى ترمز لأهورا مزدا ـ أن هذا النور الفياض ينبعث من النار ، ويملأ الفضاء الأبدى ، ويسير فى طريقه حتى يصل إلى القوة العليا .

وكان من هذه النيران المشتعلة فى الهياكل فى جميع أنحاء إيران ثلاث نيران نظروا إليها نظرة قدسية خاصة ؛ الأولى: نار العظمة الربانية التى كانت بهيكل كابول ، والثانية ، نار الأبطال ، وكانت تشعل فى هيكل على جبل أَزْنُوَنْد على سواحل جزيرة أورمية على مقربة من مسقط رأس زرادشت . والثالثة : نار العمال ، وكانت تشعل على جبل رِيونْتْ بخراسان .

ولم يقف الزرادشتيون عند تقديس الشمس والنار ؛ بل إنهم كانوا يقدسون سائر العناصر الأربعة (الأستقصات) وهى : التراب والماء والهواء ؛ وإنما قدسوا التراب لأنه مصدر أقوات الناس . ومن مظاهر تقديسه أنهم لم يدفنوا به جثث الموتى التى كانت تعد فى نظرهم قذرة — كما قلنا من قبل . ومن مظاهر تقديسهم للماء أنهم لم يقربوه إلا للشرب ، ورى الأرض ، ولم يستخدموه فى غسل الأشياء القذره .

٨ — ويلخص الشهرستانى رأى زرادشت فى الكون فيقول : —

« وله (= لزرادشت) كتاب قد صنفه ، وقيل أنزل ذلك عليه وهو زندوستا . (= الأبستاق = الأصل المتن + الزند = الشرح)[1] ، يقسم العالم قسمين : مينه وكيتى ، يعنى (العالم) الروحانى ، و (العالم) الجسمانى أو (العالم) الروحى و (العالم) الشخصى » .

« وكما قسم الخلق إلى عالمين يقول إن ما فى العالم ينقسم قسمين : بخشش وكنش ؛ يريد (بهما) التقدير (أو التدبير) ، والفعل . وكل واحد (منهما) مقدر على الآخر (متوقف عليه ؛ فالتقدير تصوير ذهنى للعمل ، والعمل نتيجة فعلية للتقدير) .

---

(١) ماذكر بين قوسين من إضافتى — المؤلف .

« ثم يتكلم عن موارد التكليف ، وهي حركات الإنسان (التى يكلفها) فيقسمها ثلاثة أقسام : منِشْ ، وكو نْش ، وكُنِشْ يعنى بذلك (على الترتيب) الاعتقاد ، والقول، والعمل . وبالثلاثة يتم التكليف ، فإذا قصر الإنسان فيها خرج عن الدين والطاعة . وإذا جرى فى هذه الحركات على مقتضى الأمر والشريعة فاز الفوز الأكبر » .

فالاعتقاد الصادق ، والكلم ، الطيب والعمل الصالح هى أمهات الفضائل الجوهرية فى الديانة الزرادشتية كما ذكرنا من قبل .

٩ — والحق أن زرادشت يعلق على العمل أعظم أهمية ، فقد كان دائما يرفع من شأن الجد والعمل ، ويضفى عليه معنى قدسيا ؛ إذ كان يعده أجدى وسيلة للتقرب إلى الخالق ، والفوز برضاه ، والنجاة من غضبه وسخطه . وكان ينوه بمنزلة القوة الفعالة المختارة فى الإنسان التى تحرره من ربقة الذل والاستعباد .

وكان يلفت أنظار أتباعه إلى فضل حياة الاستقرار ، وبناء مواقد النار لإنضاج الطعام ، والعمل لاستغلال الأرض ، والانتفاع بخيراتها ، وبما أن الحياة من ملذات طيبة .

ولما للعمل من منزلة رفيعة وقيمة كبيرة فى كسب الرزق ، والدفاع عن النفس والوطن ، والجهاد ضد قوى الشر — كان زرادشت يرى أنه من الواجب على كل إنسان أن يحافظ على صحته ، كما كان يحث على عدم الصوم إلا فى ظروف خاصة نادرة ، وينادى بتعدد الزوجات ليكثر النسل ، ويزداد عدد الجيوش المحاربة فى سبيل النور . وقد ذكرنا فيما مضى أنه كان يحرم الانتحار ؛ لأنه جناية ضد النفس ، والوطن ، وضد الخالق الأكبر ، الذى لا يسره أن ينقص عدد جنوده وأعوانه .

وكان يرى أن تفرغ الإنسان لواجباته ، والفناء فى أدائها ـ بكل إخلاص وأمانة ـ هو فى الواقع تهذيب للنفس ، جدير بأن يجنبها ظلمة الرذيلة ، ودنس الشر . وأن فلح الأرض والعكوف على إصلاحها واستغلالها ـ يقرب العبد من ربه ، أكثر من صوم أو صلوات تؤدى فى خمود وكسل ، وأكثر مما يتبعه من يسرفون فى الزهد ، ويغلون فى تعذيب أنفسهم .

والخلاصة أن زرادشت كان يعد الجد فى العمل رمزا ظاهريا لأداء المرء واجبه نحو ربه ، وأنه كان يعلق أكبر أهمية على الزراعة ، ويجعلها أفضل شعار لتقريب العبد من الخالق الأكبر ، والإقرار بفضله ، فهى بذلك مظهر أساسى من مظاهر العبادة .

ولعل زرادشت كان ـ فى حثه على حياة الاستقرار والإقامة ، واستغلال موارد الأرض واستخراج كنوزها — متأثراً بما كان عليه الإيرانيون فى عصره؛ فقد كانوا حديثى عهد بحياة الاستقرار التى أخذوا يألفونها بعد أن هجروا حياة البدو والتنقل فى السهول والأودية. وكان كثير منهم لا يزالون يسكنون البادية ، ويربون الماشية ، فأراد زرادشت بهذا إن يحبب إليهم الحياة الجديدة ، ويشجعهم على الاستقرار ، وبذل الجهد فى استغلال الأرض ، والانتفاع بخيراتها .

ومما يتصل بالاهتمام بالزراعة أن الزرادشتية تنظر إلى الثور والكلب نظرة تقديس ، لأن الأول يستخدم فى حرث الأرض وريها ، والثانى يستخدم فى حراسة الزرع ، وحماية الماشية .

١٠ — ولشدة رغبة زرادشت فى أن يؤدى الناس الواجبات التى تفرضها عليهم حياتهم الإنسانية الاجتماعية أوجب على كل من يعبد أهورامزدا أن ينظر إلى أربعة أمكنة أو أوساط اجتماعية نظرة ملؤها الاحترام والتقديس . الأول الهيكل مع مافيه من نار مقدسة ، والثانى

هو المنزل مع مافيه من أولاد ومواقد للنار ، والثالث الأرض التي تخرج الحب والفاكهة، والرابع الأرض الجافة التي يجب أن تروى وتستغل، أو المستنقعات التي يجب أن يصفى ماؤها ثم تصلح وتزرع .

يدل على ذلك مانقرؤه في «الونديداد» أحد أسفار الأبستاق وترجمته :ـ «أن من يبذر الحب يبذر القدسية ، إنه يجعل ناموس «مزدا» ينمو ويزداد رفعة ، ويعلو قدرا . إنه يجعل ـ في حدود طاقته ـ ناموس «مزدا» يخضر ويزدهر . إن عمله هذا يساوي مائة عمل من أعمال محبة الله الخالق ، وعبادته ، ويعدل ألفا من أعمال الابتكار والإبداع ، وعشرة آلاف من أعمال التضحية » .

« وحينما ينمو الشعير تنزعج الشياطين ، وحينما يخرج الحب يُغشى على الشياطين ، وحينما يحصد القمح تهلك الشياطين ، وعندئذ لا يستطيعون الإقامة في البيت ؛ لأن البيت الذي يدخله القمح تخرج منه الشياطين مذءومة مدحورة ، كأنما تكوى حلوقها بحديد محمى أحمر متوهج حينما يوجد كثير من الحب » .

ومن أهم التعاليم الدينية الخلقية الاجتماعية ثلاثة ، أما الأول فهو : اجتناب الكذب ؛ لأنه شر مستطير ، وأما الثاني فهو : الوفاء بالعهد ، وحفظ كلمة الشرف ، وأما الثالث فهو : اجتناب الاحتكاك بالموتى أو الاتصال بهم ؛ فإن جثة الميت رجس ، وخبث عظيم ، يلوث كل مايتصل به ـ وقد شرحنا ذلك فيما سبق .

١١ ـ وقد فرض زرادشت على أتباعه خمس صلوات في اليوم والليلة . كانت واحدة منها عند بزوغ الشمس ، وواحدة عند الظهر ، وواحدة عند غروب الشمس . والصلاة عنده دعاء يوجه إلى أهورامزدا في شتى المناسبات . وخلاصة ترجمة دعائه المأثور :

« أرجو منك أيها الرب الخالق المطلق القدير أن تغفر لى ما ارتكبت من سيئات ، وما دار بخلدى من تفكير سيّء ، وما صدر عنى من قول أو عمل غير صالح . إلهى ، إننى أرجو منك أن تباعد بينى وبين الخطايا حتى أحشر يوم الدين مع الأطهار الأخيار »

١٢ — وللمرأة فى الديانة الزرادشتية منزلة رفيعة : فجماعة الأرواح المقدسة تتألف من ستة ملائكة ذكور ، وست ملائكة من الأناث . وتبيح الزرادشتية أن تتولى النساء وظائف الكهنوت .

وقد قلنا من قبل أن هفوفى زوجة زرادشت الثالثة هى الأم الروحانية للمسيح المنتظر ، الذى تقول الزرادشتية إنه ينحدر من زرادشت بطريق التناسل الروحانى .

١٣ — ونجد فى الأسفار المقدسة لدى المتأخرين من الزرادشتيين وصفاً دقيقاً لحياة الروح بعد موت صاحبها ، ذلك أنها بعد أن تتحرر من جسد صاحبها تبقى فى صمت ، ثم يؤذن لها أن تذهب نحو صراط الحساب أو الجزاء ، حيث ترى رمزاً حسياً يمثل أعمالها على الأرض ، فإذا كانت تلك الأعمال حسنة تَمَثَّل هذا الرمز للروح غادة سوية جميلة ، وإلا تَمَثَّلتْ لها مخلوقاً بشع المنظر ، نتن الرائحة .

وبعد أن تعبر صراط الحساب تحتل إحدى منازل ثلاث : منزلة الأشقياء فى جهنم دار الجحيم ، ومنزلة السعداء فى الجنة فردوس النعيم ، ومنزلة وسطا بين هؤلاء وهؤلاء ؛ فمن ثقلت موازينه ورجحت حسناته سيئاته احتلت روحه المنزلة الأولى ، ومن خفت موازينه ورجحت سيئاته حسناته ذهبت روحه إلى المنزلة الثانية ، ومن تساوت حسناته وسيئاته احتلت روحه المنزلة الثالثة .

ونجد وصفاً تفصيلياً لرحلات الروح بعد الموت فى سفر «أرده ويراف» : أحد الأسفار المتأخرة ، وهو لدى قدماء الإيرانيين بمثابة الملهاة المقدسة Divina Commedia لدى الرومان .

ومؤلف هذا السفر هو أرده ويراف زعيم الكهنة فى أواخر الدولة الساسانية ، الذى أحيا التقاليد الزرادشتية القديمة وجمع اشتاتها ، وصاغها فى أساليب قصصية شائقة تفيض حياة ومتعة .

ويمتاز هذا الكتاب بأنه يشرح الفوضى المادية والدينية التى حلت بالدولة الفارسية على أثر غزو الإسكندر اللعين لها ، ويوضح النهضة الوطنية الدينية التى تمت فى العهد الساسانى فى القرن الثالث الميلادى ، ويبين آراء الزرادشتيين فى اليوم الآخر وما فيه من حساب وثواب وعقاب .

يقول أرده . إنه قد اعترته حالة غيبوبة انتقل فى أثنائها من عالم الأحياء إلى عالم الأموات فى صحبة أسروش Sroash المَلَك رسول أهورا مزدا المحبب لدى الزرادشتيين .

وفى أثناء هذه الرحلة المزعجة فى عالم الموتى يعلم أرده أن روح الميت تجثم على هامته ثلاثة أيام بعد موته ، ويدرك أن روح البر التقى تنعم فى هذه الفترة بما يهب عليها من روائح الأشجار والزهور الطيبة الرائحة . وعقب انتهاء هذه الفترة تأتى الروح إلى صراط جميل حيث تتراءى لها صورة فتاة جميلة تقدم لها الشكر على أن جعلتها فى هذه الصورة الجميلة : فتسألها : من أنت ؟ فتقول الفتاة : إنى عقيدتك الصادقة ، وكلماتك الطيبة ، وأعمالك الصالحة التى صدرت عنك فى حياتك الدنيا » .

ثم يأخذ أسروش الملك ويراف الكاهن إلى مكان آخر ، ويطلعه على جنات النعيم المتفاوتة فى الدرجة ، المعدة لأرواح المتقين ، الذين تفاوتت فضائلهم ، فيدرك أن حياة الأرواح الفاضلة أسعد من أن يحيط بها وصف .

ويمضى أرده فيطلعه صاحبه أسروش على نهر تعلوه الكآبة ، ويحدق به الهم والغم ، ويبدو كأنه الجحيم نفسها فى بشاعتها . وهناك يرى أرواحا كثيرة معها ملائكة تحرسها ، وتساعدها على عبور ذلك النهر . ويسأل أرده عن هذا النهر فيقول أسروش : إنه من الدموع التى يسكبها من يبكون على موتاهم . إنهم يسكبون هذه الدموع فتتجمع فى هذا النهر فيطم ، ولا يقوى على عبوره من بالغ أهله وأصدقاؤه فى البكاء عليه بدون مقتض ولا جدوى » .

ثم يلتفت أسروش إلى أرده ويقول له : « عليك أن تسير فى الأرض وأن تدعو أهلها أن يكفوا عن البكاء والعويل وسكب الدموع على من يفارقونهم ، لأنهم بذلك يتعبون أرواح موتاهم ، ويسيئون إليها ، ويضعون العقبات فى طريقها .

ثم يرى أرده الأرواح التى تحتل منزلة وسطا بين الجنة والنار لأن حسناتها تساوى سيئاتها .

وأخيراً يرى أرده ما تعانيه الأرواح الشريرة من ألوان الشقاء والعذاب ، ويعلم أن كل روح شريرة تقضى الثلاث الليالى التى تعقب الوفاة فى عذاب أليم ؛ جزاء على ماعملت من سوء ، وفى الليلة الثالثة تهب عليها ريح خبيثة منتنة باردة تحمل معها امرأة عارية ماجنة مستهترة ، شكلها بشع ، ومنظرها قذر ، تنبعث منها رائحة كريهة كأنها رائحة جثة متعفنة . ويفهم أرده أن هذه صورة مجسمة للأعمال السيئة التى اقترفتها الروح الشريرة ، وعقائدها الفاسدة وأقوالها الخبيثة . ولم تلبث تلك المرأة أن نظرت إلى الروح الشريرة نظرة احتقار وازدراء ، وأخذت تعنفها فى قسوة ، وتلومها أشد اللوم على أن جعلتها — بسوء سلوكها — فى هذه الصورة البشعة القذرة .

ثم تتمثل لأرده أنواع مختلفة من الجحيم دار العذاب الأليم والعقاب المقيم . وهنالك يسمع روحاً شريرة تقول بعد أن قضت ثلاثة أيام فقط فى عذاب وعقاب : « لقد قضيت فى هذا العذاب تسعة آلاف سنة ولم ينقذونى من هذا البلاء » . ذلك لأن تسعة آلاف سنة هى المدة التى قدر للأرواح الشريرة أن تقضيها فى عذاب الجحيم إلى أن يظهر ساوشيانت ، المنقذ المنتظر ، الذى سينتهى بظهوره الشر فى الدنيا والآخر ، فيعيش الأحياء وأرواح الأموات فى سعادة ونعيم .

وبعد أن عاد أراده ويراف من رحلته أخذ إسروش الملك يعظه فيوجه نظره :

إلى قيمة العمل ، وبذل الجهد فيه ، وما يترتب على ذلك من مثوبة .

— وإلى أن الغرور صفة مستهجنة ؛ فإن المغرور بنفسه لم يأخذ على الله عهداً بألا يصيبه مرض أو فقر .

وإلى وجوب السير فى طريق الحق .

وإلى تذكير الناس بوجوب الاهتمام بأرواحهم أكثر من الاهتمام بأجسادهم ؛ لأن أرواحهم خالدة أما أجسادهم فتبلى وتفنى .

— وإلى وجوب التزود من الدنيا بما ينفع فى الآخرة من عمل الخير ، والإخلاص فيه :

— وإلى أن الإله وحده هو الذى سيصحب الإنسان فى هذه الرحلة ؛ ولذا كان من الواجب الاعتماد عليه ، واتباع الطريق الذى يدعو إليه .

ثم يعود الملك إلى حديثه عن الروح والجسد ، فيشبه الجسد بالحصان ، والروح بالراكب ، ويذكر أن حسن سير الحصان يتوقف على مهارة الراكب ، وأن راحة الراكب متوقفة على استقامة الحصان وعدم جموحه ،

وأن كلا من الحصان والراكب فى حاجة إلى الغذاء ؛ ولذا كان من الواجب الاهتمام بالروح ، مع عدم إهمال الجسد .

وبعد أن يذكر الملك لأرده أن الرب يطالب العبد بألا يذنب ، ولا يكر نعمة مزدا — يدعوه إلى أن يعلم الناس ألا ينغمسوا فى ملذات الحياة ومسراتها الفانية ؛ فإنهم سيتركون الدنيا ويخرجون منها ولا شىء معهم .

ويعود الملك إلى الحديث عن الغرور فيقول : إن الأقوياء من الشبان يغترون بصحتهم ، والأغنياء من الناس يزهون بغناهم ، متوهمين أن الصحة باقية ، وأن المال لا يفنى . وهذا خطأ ؛ فمن الواجب أن يعلموا أن القوة إلى ضعف ، والمال إلى زوال ، ولا يبقى سوى الإله .

١٥ — هذا وإننا نجد فى سفر « الكاتاها » أن الحديث عن الدنيا والآخرة وما فيها . يتردد فى عدة مواضع ، فمن ذلك :

ا — أن زرادشت يقول : « إذا عرفتم أوامر الله الخاصة بقوتى الخير والشر ، وعلمتم أن اتباع الأولى يفضى إلى السعادة ، وأن اتباع الثانية يؤدى إلى الشقاء . وأن الذين يؤمنون بالقوة الأولى مصيرهم السعادة ، وأن الذين يؤمنون بالقوة الثانية — وهم الكذابون المنافقون — جزاؤهم العذاب الأليم — إذا عرفتم ذلك أسرعتم إلى دخول دار المدح . »

ب — أن زرادشت يسأل ربه عما أعده من مثوبة للصديقين وما قدره من عقوبة للكاذبين — فيجيب الرب بما يدل على : أن اتباع الضالين يفضى إلى فناء البلاد وسكانها ، فمن الواجب مقاتلتهم بالسيف . وفى فقرة أخرى يجيب الرب عن هذا السؤال فيقول ما خلاصته : أن جزاء الكاذبين المنافقين يوم القيامة هو اللعنة والهلاك .

وفى موضع آخر يقول الرب : ما يفيد أن من ينصرون أهورا مزدا

بالفكر (الطيب) والعمل (الصالح) جزاؤهم الصحة التامة ، والقوة ، والخلود ، وأن يعاملوا بالقسطاس المستقيم .

حـ — أن هذا السفر يتحدث فى بعض فقرات أخرى عن الصراط ، ويذكر أن جزاء المحسنين فى الآخرة أن يدخلوا الفردوس ، وأن جزاء الكاذبين أن يدخلوا جهنم .

١٦ — وقد كان للتدين آثار بارزة فى حياة الفرد والمجتمع لدى الزرادشتيين ، وبخاصة فى الأعياد والمآتم .

فقد كان الزرادشتى مقيداً بقيود دينية فى كثير من شئون حياته الخاصة ؛ كالأكل ، والنوم ، والاستيقاظ منه ، وإضاءة المصابيح . وكان عليه أن يبقى نار الموقد فى داره مشتعلة لا تخبو ، وألا يسمح لضوء الشمس أن يقع على النار ، ولا للماء أن يلقى على النار ، ولا ليده أن تمس جثة ميت ، أو جسد امرأة حائض ، وألا يلوث الماء ، وألا يتكلم فى أثناء الطعام ، وألا يبكى .

وكان عليه إذا أشكل عليه أمر من الأمور أن يرجع إلى رجال الدين .

وكان الزرادشتيون يذهبون إلى هياكل النار فى أيام أعيادهم الرئيسة ، ليقيموا الصلوات ، ويبتهلوا إلى أهورا مزدا بالدعوات ، وبخاصة يوم التوبة ، وهو عيد النيروز ؛ فى هذا اليوم يفعل الزرادشتيون مثل ما يفعل المسلمون يوم عيد الفطر مثلا ؛ فيتزاورون للتهنئة بالعام الجديد ، ويستيقظ الواحد منهم من نومه مبكراً فيستحم ، ويلبس ملابسه الجديدة ، ويبتهل إلى الإله بالدعاء أن يغفر له ولأهله سيئاتهم التى اقترفوها فى العام المنصرم ، ثم يذهب إلى هيكل النار فيجتمع هو وإخوانه هناك ، ويستأنف معهم الدعاء ، ويطلب من الإله الرحمة والرضوان ، ثم يتصدق على الفقراء والمساكين .

هذا فى الأعياد ، أما فى المـآتم فـكان من عاداتهم بعد إلقاء جثة الميت فى برج الصمت أن يعزى أهله ثلاثة أيام ، وأن يقام فى المساء السابق لليوم الرابع حفل دينى يحضره أهل الميت وأصدقاؤه ، وأن توزع الصدقات رجاء أن يغفر الإله له ، وأن تجلس قريباته على مقربة من المـكان الذى مات فيه ، على بساط يفرش على الأرض لتقبل العزاء من صديقاتهن — من ثلاثة أيام إلى عشرة بعد الوفاة .

١٧ — ولرجال الدين فى الزرادشتية منزلة رفيعة ، يدل على ذلك ما كان لهم من سيطرة دينية ونفوذ اجتماعى ، حتى إن زرادشت نفسه كان موجها سياسيا لـكشتاسب ، يرجع إليه فى شئون السياسة ، ويستمع إلى نصائحه فيها .

وأرقى الوظائف الدينية وظيفة الموبذ موبذان أى رئيس الموابذة ، وكان يشرف على الشئون الدينية جميعها ، ويوجه رجال الدين على اختلاف درجاتهم ، ويوليهم ويعزلهم .

ولم يكن نشاط الموابذة مقصوراً على الشئون الدينية ، بل إنهم كانوا يمارسون الطب ، والقضاء ، والتعليم ، ويشتركون فى تصريف كثير من شئون الدولة ؛ كوضع القوانين ، وتنفيذها .

وبعد طائفة الموابذة تأتى طائفة الهوابذة ، وهم الذين يتولون إقامة الشعائر الدينية فى هياكل النار [1] .

١٨ — ونختتم حديثنا عن تعاليم الزرادشتية بأن نقرر أن من يريد أن يعرف هذه الديانة على وجهها الصحيح يجب عليه أن يضع نصب عينيه ثلاثة أصول ، أو ثلاث خصائص هامة ، على إدراكها حق الإدراك يتوقف

---

(١) راجع : « دراسات فى الشاهنامة » . للدكتور طه ندا ، : ٢٥٦ وما بعدها .

تقدير هذه الديانة ، ومعرفة السر فى قوتها ، وشدة تأثيرها فى نفوس القدامى من الإيرانيين ، وسرعة انتشارها بينهم .

أما الأصل الأول فهو : أن المبادىء التى أذاعتها هذه الديانة لم تكن نتيجة تأمل فلسفى ، أو تفكير ميتافيزيقى كما كانت مبادىء الديانات الهندية ، بل إنها كانت مبادىء أو دوافع خلقية لها آثار بارزة فى السيطرة على حياة الإنسان العملية ؛ ذلك لأنها تفرض على الإنسان واجبات حيوية معينة ، وتوجب عليه أن يسلك فى هذه الحياة مسلكا إيجابيا عمليا واضح المعالم ، محدود الغايات ؛ فليس له أن يهجر متع هذه الحياة أو يزدريها — كما يفعل البراهمة والبوذيون ، بل عليه أن يكد ويعمل ، ويستمتع بما فى الحياة من طيبات ، ما وسعه الاستمتاع بها ؛ ومن ثم كانت ولادة الفرد حادثاً سعيداً ، وكان يوم مولده بمثابة يوم عيد ينبغى أن يسر له الوالدان أعظم سرور . ولم تكن مباهج الحياة وإقامة الحفلات تعد فى نظر الإيرانى المتدين من الأمور الدنيوية المادية الخبيثة المستهجنة ، بل إنها كانت من الأمور التى يدعو إليها دينه . وكان من الواجب على كل مؤمن بالزرادشتية أن يتزوج بأكثر من واحدة إذا شاء ، ليكون له أولاد يساعدون على تعمير الأرض ، وملئها بالجنود الذين يعبدون أهورا مزدا ، ويتعاونون على نشر دينه ، وعلى إفناء قوى الشر .

وأما الأصل الثانى فهو : أن هذه الديانة تدعو إلى حياة الاستقرار وتعمير البلاد ، والاهتمام بمظاهر الحضارة ؛ ذلك لأنها نشأت بين قوم حديثى عهد بحياة الاستقرار ، والاهتمام بالزراعة واستغلال الأرض ، فنظرت إلى مبادئهم الجديدة ونمط حياتهم الذى أخذوا يألفونه على أنها من الأمور الطبيعية ، المتمشية مع طبيعة الإنسان ، الملائمة لحياته التطورية ؛ ولذا

كان انتشار هذه الديانة نتيجة لانتشار الحضارة ، أو بدء انتشارها بين قدامى الإيرانيين من جهة ، وعاملا أساسيا من عوامل نهوض الحضارة واتساع نطاقها من جهة أخرى .

وأما الأصل الثالث فهو : أن تعاليم زرادشت بدأت فردية موجهة إلى كل فرد مهما يكن الشعب الذى ينتمى إليه ، توجب عليه أن يحدد موقفه من مشكلات الحياة الأساسية ، وفى مقدمتها مشكلة العقيدة الدينية . ولذا يمكن أن توصف هذه الديانة بأنها ديانة فردية ؛ لأنها توجه اهتمامها إلى الفرد ، وليست ديانة شعبية تقصر اهتمامها على شعب معين . وقد كانت فى الوقت نفسه ترمى إلى سعة انتشارها حتى تصبح ديانة عالمية ، من مبادئها أن يقوم كل من يعتنقها بالدعوة إليها والتبشير بها بين الشعوب على اختلاف قومياتهم .

وقد كان زرادشت نفسه بمثابة مبشر يعنيه أن يلتف حوله الأنصار والأتباع من مختلف الشعوب . وقد نجح فعلا فى زردشة « فريانا » الطوارنى وأهل بيته — كما قلنا من قبل .

ومن ثم يرى بعض المؤرخين أن الزرادشتية هى الديانة التبشيرية الأولى ، وأنها فى مقدمة الديانات التى ادعت لنفسها الحق فى أن تكون ديانات عالمية يعتنقها جميع الشعوب .

هذا هو ما يدعيه الزرادشتيون ، ولكن الواقع كان على خلاف ذلك؛ فقد كان من الطبيعى أن يكون أتباع زرادشت فى أول الأمر من بين عشيرته وأبناء وطنه ، ولم تلبث ديانته — بعد أن انتشرت فى إيران كلها — أن طبعت بطابع شعبى . يدل على ذلك ما ورد فى نقش الصخرة المسماة « بهيستون »

المنسوب إلى دارا الأول ، وهو أن أهورامزدا يوصف بأنه إله الإيرانيين ، كما كان العبرانيون — ولا يزالون — يطلقون على « يهووا » إله العبرانيين .

وقصارى القول أن أعظم نجاح أحرزته الزرادشتية هو : أنها كانت وسيلة دينية فعالة لتوحيد كلمة الإيرانيين ؛ وجمعهم تحت لواء شعبي واحد فى عهد دارا الأول فى أوائل القرن الخامس قبل الميلاد .

الفصل الرابع عشر

١٤ – محاربة الإيرانيين للطورانيين ونهاية زرادشت

١ – لقد ظل زرادشت طيلة حياته الطويلة محبا أشد الحب لربه، مخلصا أشد الإخلاص فى نشر دعوته، متحمسا للحق والخير، يشيد هياكل النار فى كل مكان من إيران وغيرها، ويدعو الناس إلى الجهاد فى سبيل النور والخير، كأنما كان شعلة من نور نارى أو من نار نورانية فى صورة إنسان، تمتد إلى الأشرار فتحرقهم، وتشتت شملهم، وتمزق أوصالهم، وتبارك الأبرار وتنير بصائرهم، وتضىء لهم سبيل الخير، وتهديهم طريق البر.

وقد عرفنا مما سبق ذكره أن جهوده التى بلغت أقصى غاية، ووصلت إلى منتهى نهاية فى العشرين سنة الأخيرة من عمره قد توجت بدخول كشتاسب وأسرته، وحاشيته وجيشه فى دين زرادشت، وشدة التعصب له، والإخلاص فى الدفاع عنه والقتال فى سبيل انتصاره وانتشاره. وبذلك تحققت الرؤيا التى كان زرادشت قد رآها قبل دخول الملك فى دينه.

٢ – وكان الطورانيون من القبائل التركية ألد أعداء إيران والزرادشتية معاً، وكان زرادشت يحرض كشتاسب على محاربتهم. وكان إعلان الحرب عليهم، ومقاتلتهم تحت إمرة إسفنديار ولى العهد من الشروط التى اشترطها زرادشت ليقوم بمعالجة حصان الملك.

وقد نفذ الملك الشق الأول من هذا الشرط فأعلن الحرب على الطورانيين، ولم يكن من الممكن تنفيذ الشق الثانى، فحين أعلنت الحرب

كان اسفنديار سجينا ؛ ذلك أن إسفنديار كان بطلا مغوراً لم يوصم بوصمة سوء أو نقص أو تقصير . وكان مخلصا للدين الجديد فانيا فيه ، يتولى قيادة الجيوش فى الحرب التى شنها أبوه على أعداء هذا الدين . وحين وضعت الحرب أوزارها أرسله أبوه إلى كثير من البلاد المجاورة لإيران،مبشراً بدين زرادشت ، يبصر الناس به ، ويدعوهم إلى اعتناقه . ولما أتم رسالته عاد إلى وطنه فرحا مسروراً ، لأنه قد أدى الرسالة على وجهها .

ولما كان من المقرر — طبقا لقواعد توارث العرش فى إيران — أن يخلف إسفنديار أباه فى الجلوس على سرير الملك فقد دبر له أخوه الحاقد عليه مكيدة ، فأشاع بين الناس أن إسفنديار يسعى فى قتل أبيه ليخلفه على العرش ، ووشى الواشون بإسفنديار ، ووصلت إلى الملك هذه الإشاعة فصدقها وأمر بسجن ابنه إسفنديار .

وفى أثناء سجنه أعلن الطورانيون الحرب على الإيرانيين مرة أخرى . ولما لم يكن بين الإيرانيين من يستطيع أن يقود جيشهم قيادة حازمة يستطيع أن يصد بها هجمات هؤلاء الأعداء مثل ما كان يفعل إسفنديار — فقد كان من السهل على المغيرين أن يقتحموا حدود إيران ، وينكلوا بجيشها الضعيف المتخاذل ، الذى كانت تنقصه القيادة الحازمة .

حينئذ رأى الوزير جاماسب أن لا مناص من الاستعانة بإسفنديار فى صد هجمات ذلك العدو الغادر ، فنصح إلى الملك أن يطلق سراح ابنه ، ويوليه قيادة الجيش . ووافق الملك فهرع جاماسب إلى السجن وأطلق سراح إسفنديار ، وتوسل إليه أن ينسى مآسى الماضى ، ويهب لإنقاذ بلاده من هذا الخطر الداهم ، وحماية دين أهورا مزدا من عدوه الغاشم .

واستجاب إسفنديار إلى طلب الوزير ، وأسرع فى الخروج من السجن

وما لبث أن حشد الجيوش وأعاد تنظيمها ، وبث فى نفوس الجنود روح الشجاعة والإقدام ، وأعاد اليهم الشعور بالثقة والاطمئنان . وتقدم هو الصفوف ، وقاد الجيش بما عرف عنه من شدة بأس ، وقوة إرادة ، وثقة بالنفس ، ومهارة فى ممارسة فنون القتال .

وظل يغشى ميادين القتال ، ويخوض غمار الحروب حتى تم له النصر المؤزر ، فهزم أعداء بلاده التى يحبها ، وأعداء دينه الذى يقدسه . ولم يكتف بذلك بل إنه أتبع هذا النصر نصراً آخر ؛ فقد هجم بجيشه الجرار على الطورانيين فى عقر دارهم ، وشن عليهم غارة شعواء ، وأعمل فيهم السيف ، ونال منهم مأربه ، وكان ملكهم من بين قتلاهم . وبذلك تمت للإيرانيين الغلبة على الطورانيين ، وزال شبح ذلك الخطر الذى كان يهدد إيران ودين أهورا مزدا مرة بعد أخرى .

٣ — نعم لقد صار الوطن الإيرانى والدين الإيرانى الجديد فى أمن من خطر ألد أعدائهما ، ولكن صاحب هذا الدين قد قضى نحبه ، ولقى حتفه على أيدى هؤلاء الأعداء الألداء . ذلك أن إسفنديار قد لبث فى السجن مدة أطول مما كان ينبغى ، وأطلق سراحه بعد أن توغل الأعداء فى قلب إيران ، حتى وصلوا إلى عاصمتها بلخ القلعة المقدسة ، حين كان زرادشت نفسه هو وثمانون من كبار الكهنة يقدمون الوقود للنار فى هيكل بلخ ؛ ليشتد أوارها ، تقربا إلى ربهم ، وتوسلا إليه أن يرفع عنهم وعن بلادهم هذا البلاء المحدق بهم .

وفى هيكل النار وأمامها هجم الأعداء على الثمانين كاهنا وعلى زعيمهم زرادشت ، وطعنوهم بسيوفهم ، فخر الجميع صرعى ، وسالت دماؤهم فلطخت جدران موقد النار . وامتدت إلى النار المقدسة نفسها فأخمدتها .

وهكذا قضى زرادشت نحبه فى السابعة والسبعين من عمره وهو فى أحد الهياكل المقدسة يقوم على خدمة النار ، نار أهورا مزدا .

٤ — وربما لا يذكر التاريخ ميتة أكثر انسجاما مع حياة الميت مثل ميتة زرادشت ؛ فقد قضى نحبه شهيداً ، أمام النار المقدسة ، وبجانب موقد النار المقدس ، فى هيكل بلخ حصن الزرادشتية الحصين . وإنها لميتة تصور لنا فى صورة مصغرة حياة ذلك الشهيد الذى قضى حياته فى شبابه ورجولته يدعو إلى الحق والبر . ويسعى سعيا دائبا دائماً فى بناء هياكل النار التى جعلها رمزاً لقوة ربه ، وطهارته ، ونوره المتلألئ الوهاج . وعلى الرغم من فشله فى سنى دعوته الأولى فإنه قد أفلح فى النهاية ، ودخل شعبه فى دين ربه ، وتمكنت من نفوسهم التعاليم التى أذاعها فيهم ، والأخلاق الفاضلة التى دعاهم إلى التخلق بها ، وفى مقدمتها الشجاعة والإقدام فى الدفاع عن الحق ، والجد والنشاط فى العمل ، والمثابرة فيه ، والرفق والعطف فى معاملة الناس ، والإخلاص فى العقيدة ، والصدق فى القول ، وبذل كل ما يمكن من جهد فى استغلال الأرض واستخراج كنوزها .

٥ ـ ولقد كان لشخصية زرادشت وتعاليمه آثار بارزة فى حياة الإيرانيين بعد وفاته ، ففى أثناء المائتى السنة التى تلت عصر زرادشت استطاع الإيرانيون أن يوسعوا نطاق إمبراطوريتهم إلى حد لا نظير له من قبل ؛ فقد تمكن كيروش الأكبر (٥٥٨ — ٥٣٠ ق م) من ضم ميديا إلى فارس ، وجعلهما مملكة واحدة ، ثم أخذ بثأر زرادشت بالاستيلاء على بلاد الطورانيين ، وأخضع كثيراً من المستعمرات الإغريقية ، وأخيراً استولى باسم أهورامزدا على بابل عاصمة الآراميين أو الكلدانيين . وحوالى سنة ٥٣٨ ق م أطلق سراح اليهود الذين كان بختنصر قد حملهم أسرى إلى بابل بعد تخريب أورشليم والهيكل الأول حوالى سنة ٥٨٦ ق م .

وفى عهد دارا الأول (٥٢١ – ٤٨٥م) قويت شوكة الإيرانيين، وتتابعت انتصاراتهم على الإغريق، ولم يوقف هذه الانتصارات إلا الحرب الحاسمة التى حمى وطيسها بين الفريقين فى ماراثون وسلاميس، وكانت الغلبة فيها للإغريق. وتعتبر هذه الحرب الحد الفاصل بين انتصار الإيرانيين وهزيمتهم، تلك الهزيمة التى وصلت إلى نهايتها فى عهد الإسكندر الأكبر المقدونى الذى اكتسح البلاد الشرقية، واستولى على إيران، حوالى سنة ٣٣٠ ق م، وأحرق عاصمتها پرسبوليس. وأحرق جميع ما فيها. وكان فيما أحرق النسخة الأصلية للأبستاق كتاب زرادشت المقدس — كما ذكرنا من قبل.

وعلى الرغم من هذا كله لم ينقطع دابر الزرادشتية، بل إنها بقيت حتى جاءت الدولة الساسانية بعد عصر الإسكندر بنحو خمسة قرون ونصف قرن،[١] فأحيت الزرداشتية وجعلتها دين الدولة الرسمى.

وفى عهد هذه الدولة ظهر أرده ويراف السابق ذكره، وعين كاهنا أعظم للزرادشتية. ويقال إنه قد توصل بجده ونشاطه، وقوة ذاكرته وعبقريته الدينية أن يسترد بطريق الراوية الشفوية كثيراً من أجزاء الأبستاق المفقودة. وقد دون ما رواه وبقى جزءاً لا يتجزأ مما يطلق عليه الآن اسم الأسفار المقدسة المتأخرة المدونة بالفهلوية[٢].

---

(١) أسس أردشير بن بابك الدولة الساسانية حوالى سنة ٢٢٦ م، واستمر حكمه إلى سنة ٢٤٠ م وقد انقرضت الدولة الساسانية حوالى سنة ٦٤٣ م وذلك حين دخلت إيران فى الخلافة الإسلامية فى عهد الخليفة الثانى عمر بن الخطاب رضى الله عنه سنة ٢١ هـ.

(٢) راجع كتاب « قصة الأدب الفارسى » للمؤلف ص : ٩٠ — ٩٤ :

الفصل الخامس عشر

تعليق وتحقيق

١ — وبعد فهذه قصة زرادشت الحكيم ، والديانة التى أتى بها ، روبناها مفصلة عن أوثق المصادر .

على أنه ليس من الحق أن نقول إن جميع ما رويناه من التفصيلات أمور متفق عليها بين المتقدمين والمتأخرين من المؤرخين ؛ فإننا نجد فريقاً منهم يصفون الزرادشتية ومعجزات زرادشت وصفاً إجمالياً ، فى حين أن فريقاً آخر يسهب ويفصل ، ويكثر من ذكر المعجزات التى ظهرت على يد زرادشت بعد نبوته ، والإرهاصات التى ظهرت قبل ذلك .

وقد ذكرنا فيما مضى أصح الآراء فى زمن مولد زرادشت ومكانه . وهنا نقول إن جميع المؤرخين قد اتفقوا على أن الديانة الزرادشتية : —

(ا) تدعو الناس إلى تقديس الإله الأعظم أهورامزدا ، وعبادته .

و (ب) تنادى بثلاثة مبادىء جوهرية هى : التفكير الطيب أوحسن النية ، والقول الطيب ، والعمل الصالح .

و (حـ) تحث معتنقيها على الجهاد فى سبيل الحق والخير والنور ، ومقاومة قوى الباطل والشر والظلام ، وعلى رأسها أهريمن .

و (ء) توجب على أنصارها العمل فى جد ونشاط لكسب الرزق ، وتجعل فى مقدمة الأعمال التى يتقرب بها العبد إلى الرب فلح الأرض ، واستغلال مواردها ، وتربية المواشى .

و(هـ) – تفرض على كل زرادشتى أن يعطف على الفقراء والمساكين .

و(و) – تعد المتقين الصالحين المتبعين لأوامر أهورامزدا بالثواب والنعيم، وتنذر العصاة المخالفين بالعقاب والعذاب فى جهنم دار الجحيم يوم القيامة .

٢ – وقد اتفق القدماء والمحدثون من المؤرخين على أن زرادشت :

ا – ضحك فى اليوم الذى ولد فيه بصوت عال سمعه جميع الحاضرين وعلى أنه :

ب – قال إنه نبى مرسل من لدن أهورامزدا بطريق الوحى ؛ لهداية الناس ودعوتهم إلى طريق الحق والخير . وعلى أنه .

حـ – قد ظهرت على يديه بعض الأمور الخارقة للعادة قبل نبوته وبعدها .

ولكنهم لم يتفقوا إلا على اثنين من هذه الأمور ، أولهما من قبيل الإرهاصات وهو أنه ضحك فى اليوم الذى ولد فيه كما قلنا من قبل . وثانيهما من قبيل المعجزات ، وهو أنه أبرأ جواد الملك كشتاسب مما أصابه ، فخرجت قوائمه من بطنه ، وكان ذلك على أثر توسل زرادشت لأهورامزدا – على نحو ما ذكرنا ، فى جملته لا فى تفصيله .

وقد اتفق المؤرخون أيضا على :

ء – أن كشتاسب الملك آمن بزرادشت بعد أن شاهد ما شاهد من المعجزات ، التى جعلته يوقن بأن زرادشت صادق فى دعوته ، وعلى .

هـ – أن الزرادشتية انتشرت فى جميع أنحاء إيران فى عهد الدولتين الهخامنشية والساسانية , وظلت قوية حتى بعد ظهور مانى الزنديق .

هذه هى أهم العناصر الخاصة بتاريخ الزرادشتية التى أجمع المؤرخون على روايتها – وإن كان فريق منهم يسلك سبيل الإجمال فى بيانها ، وفريق آخر يسهب فى شرحها وتفصيلها .

وإزاء هذا كله لا نجد مجالا للشك فى هذه العناصر ؛ لأنها ثابتة بالتواتر الذى لا يكاد أحد من المحققين يطعن فى صحته . وفى مقدمة من نقلوها إلينا مؤرخو اليونان والفرس والعرب .

٣ — بقى بعد هذه العناصر مبدأ مختلف فيه ، وهو . مبدأ التوحيد، الذى يرى معظم المؤرخين أنه كان فى مقدمة المبادىء التى اعتنقها زرادشت ، ودعا الناس إلى اعتناقها . ومن هؤلاء من يقولون بأن مبدأ التوحيد لم يكن من ابتكارات زرادشت ، بل إنه كان مبدأ مقررا لدى العقلاء من قدماء الإيرانيين ، وليس لزرادشت فضل إلا فى رد العامة إليه ، بعد أن حادوا عنه ، وأخذوا يعبدون الكواكب وغيرها من الكائنات الطبيعية العظيمة ، السماوية والأرضية .

أما الذين يقولون بأن عقيدة زرادشت كانت ثنوية تقوم على القول بوجود إلهين اثنين منفصلين ، أحدهما إله الخير وهو أهورا مزدا ، والآخر إله الشر وهو أهريمن ، وكذلك الذين يرون أن زرادشت كان يقول بوجود إله واحد ذى طبيعة ثنائية مزدوجة ، أقول إن هؤلاء وأولئك أقلية لا يعتد برأيها .

ومن ثم يسوغ لنا أن نقول فى ضوء ما سبق — إن من المرجح كثيراً أن ديانة زرادشت كانت ديانة توحيد .

٤ — ومن الأمور التى لم يتفق عليها المؤرخون نزول زرادشت على كشتاسب من سقف قصره ببلخ ، والأعمال المدهشة التى تمت على يدى زرادشت فى هذا القصر بعد أن أبرأ جواد الملك ، وكذلك التفصيلات التى رواها أرده ويراف عن يوم القيامة والحساب والصراط ، طبقاً لما رأى فى رحلته فى صحبة إسروش الملك .

فهذه وما يشبهها أمور تفصيلية لا تعدو أن تكون أخبارا إن دخلت فى

دائرة الممكن الذى لا يأبى العقل تصديقه فإنها لا تدخل فى دائرة اليقين الثابت بالرواية التى بلغت حد التواتر مثل غيرها من العناصر المتفق عليها بين المؤرخين ؛ ولذا نقف منها موقفا سلبيا فلا نجزم بصحتها ولا نقول بخطئها.

٥ — بعد هذا يعنّ لنا أن نسأل : أنبيا كان زرادشت أم كان دجالا ؟ أو أصادقا كان فى ادعائه النبوة أم كاذبا ؟

وقبل أن نجيب على هذا السؤال نذكر على سبيل الإجمال ما نقل عن الثقات من العلماء من معنى النبوة والنبي والرسالة والرسول .

قال الراغب الأصفهانى فى المفردات : النبوة سفارة بين الله وبين ذوى العقول من عباده لإزاحة عللهم فى معادهم ومعاشهم ، وسمى (النبى) كذلك لكونه منبأ بما تسكن إليه العقول الذكية . وهو يصح أن يكون فعيلا بمعنى فاعل . لقوله تعالى « نبىء عبادى » ، وقوله « قل أؤنبئكم » ، وأن يكون بمعنى مفعول لقوله (تعالى) نبأنى العليم الخبير »

وقال فى موضع آخر : « وقال بعض العلماء هو من النبوة بمعنى الرفعة ، وسمى نبيا لرفعة محله عن سائر الناس المدلول عليه بقوله سبحانه « ورفعناه مكانا عليا» فالنبي بغير الهمز أبلغ من النبيء بالهمز ؛ لأنه ليس كل منبأ رفيع القدر والمحل ؛ ولذلك قال الرسول عليه السلام — لمن قال له يانبيء الله — لست نبيء الله ولكنى نبي الله »

وأيا ما كان أصل الكلمة فالمفهوم منها أن النبي هو من يخبره الله تعالى بما تسكن إليه العقول الذكية ، ويزيح علل الناس فى أمر معادهم ومعاشهم .

ويقول الجرجانى فى التعريفات : النبي من أوحى إليه بملك ، أو ألهم فى قلبه ، أو نُبّه بالرؤيا الصالحة » .

وعلى هذا يكون للنبوة ثلاث وسائل الأولى: الوحي بطريق الملك ، والثانية الإلهام ، والثالثة الرؤيا .

ويقول الجرجاني بعد ما تقدم : «فالرسول أفضل بالوحي الخاص الذي فوق وحي النبوة ؛ لأن الرسول هو : من أوحى إليه جبريل خاصة بتنزيل الكتاب من الله » .

ويقول الجرجاني في موضع آخر ، يبين معنى الرسول والفرق بينه وبين النبي ـ : « الرسول إنسان بعثه الله إلى الخلق لتبليغ الأحكام . قال الكلبي والفراء : كل رسول نبي من غير عكس . وقالت المعتزلة لا فرق بينهما ؛ فإن الله خاطب محمداً مرة بالنبي ، وبالرسول مرة أخرى » .

بيد أن الرأي الذي عليه معظم المحققين من العلماء هو ما رآه الكلبي والفراء من التفرقة بين النبي والرسول ، فقد قالوا : إن النبي من أوحى إليه بشرع ، فإذا أمر بتبليغه الناس فهو نبي ورسول .

هذه هي خلاصة ما قيل في معنى النبي والرسول ، وما بينهما من علاقة . وفي ضوئها يمكن أن نقرر أن زرادشت ، الذي كان يقول إنه رسول — كما يفهم من كثير من عباراته — قد تحقق فيه الشرطان اللازمان للرسالة ، وهما : (١) أنه أوحى إليه بشريعة الخير والنور و(٢) أنه أمر أن يبلغ الناس هذه الشريعة [1] .

٦ — ولكن : ما الدليل على أن زرادشت كان صادقاً في دعواه أن الوحي نزل عليه يبلغه أصول الشريعة الجديدة ، ويدعوه إلى أن يبلغها الناس ؟

---

(١) راجع الفصلين الخامس والسادس من هذا الكتاب .

وقبل الإجابة عن هذا السؤال نذكر مايقوله العلماء فى هذا الموضوع: إنهم يقولون ما خلاصته أن المعجزة هى التى تدل على صدق دعوى النبوة. ويقولون أيضا إن المعجزة هى الأمر الخارق للعادة يظهره الله على يد من يدعى النبوة . أو إنها أمر قصد به إظهار صدق من ادعى الرسالة [١]، أو إنها : « أمر يظهر بخلاف العادة ، على يد من يدعى النبوة ، عند تحدى المنكرين ، وعلى وجه يدل على صدقه ، ويمكنهم معارضته » [٢] .

ويؤخذ من التعريف الأخير أن الأمر الخارق للعادة لا يسمى معجزة إلا إذا ظهر على يد من يدعى النبوة ؛ فالمعجزة على هذا مقصورة على مايظهر بعد النبوة ، أما ما يظهر قبلها من الأمور الخارقة للعادة فيسمى « إرهاصا » ، وقد يسمى معجزة من باب التغليب .

ومن البديهى أن الله تعالى لا يظهر المعجزة إلا على يد الصادق الأمين ، الذى يدعو إلى الحق وإلى صراط مستقيم ؛ فإذا ظهر أمر خارق للعادة على يد دجال أو كاذب ، أو داع إلى الشر فإنه لا يسمى معجزة، وإنما يسمى « ابتلاء » .

بعد هذا نستطيع أن نجيب عن السؤال السابق بأنه ليس لدينا ما يمنع من الاعتراف بأن زرادشت كان صادقا فى دعواه ؛ فقد ظهرت على يده معجزة واحدة على الأقل، نقلها الخلف عن السلف،ووصل إلينا ثبوتها بطريق التواتر ، الذى ليس لدينا ما يدعونا إلى الشك فيه .

ويؤيد ذلك أن زرادشت كان يدعو دائما إلى الحق والخير والاستقامة ؛

---

(١) راجع شرح المقاصد للتفتازانى ص ١٧٦.

(٢) راجع شرح جلال الدوانى للعقائد العضدية .

ويؤيد ذلك أن زرادشت كان يدعو دائماً إلى الحق والخير والاستقامة، وإلى الجهاد فى سبيل الخير، وإلى التفكير الحسن، والقول الطيب، والعمل الصالح، وإلى غير هذا وذاك من مكارم الأخلاق ومحاسن الأعمال، التى تسكن إليها العقول الذكية، وتطمئن إليها الفطرة البشرية؛ فطرة الله التى فطر الناس عليها، ولم يؤثر عنه قط أنه دعا إلى وثنية أو أى نوع من أنواع الشر.

ومن ثم يبدو أن شروط الرسالة قد اجتمعت فى زرادشت؛ فقد جهر بها، وظهر على يده من المعجزات ما يكفى لتأييده فيها، ولم يؤثر عن أحد من قومه أنه عارضه فأتى بمثل ما أتى به من المعجزات. أما شرط التحدى فقد قال العلماء إن التحدى بالفعل ليس ضروريا، بل يكفى أن تدل عليه الظروف وقرائن الأحوال[1].

يضاف إلى ما تقدم أن زرادشت سلك فى حياته مسلكا حسناً مرضيا، وأنه قضى الجزء الأكبر من حياته فى دعوة الناس إلى طريق الخير، وأن كشتاسب الملك آمن برسالته بعد ظهور خوارق العادات على يده، ثم آمنت به الملكة والحاشية وقادة الجيش، وزعماء الدولة الإيرانية.

وقد رأينا أن هؤلاء قد دخلوا فى الزرادشتية راضين مطمئنين، وظلوا مستمسكين بها إلى أن ظهر الاسلام فدخلوا فيه أفواجا عن رغبة وطيب خاطر، لأسباب سنذكرها فيما بعد.

ب — ورب قائل يقول: إن زرادشت كان ينظر إلى النار وسائر الاستقصات نظرة تقديس. أفليست هذه وثنية؟ فنجيب بأن نقول ماسبق أن قلناه من قبل، وهو أن زرادشت لم يعبد النار، ولم يدع أحد إلى عبادتها،

(١) شرح جلال الدين السابق ذكره.

وإنما اتخذها رمزاً للإله الطاهر المطهر ، الذى يهلك المفسدين ، ولا يتطرق إليه أى فساد .

ولم يكن زراذشت فى ذلك بدعا من أصحاب الرسالات الكبرى . ألا ترى أن ابراهيم عليه السلام أقام البيت الحرام ليكون مثابة للناس وأمنا ، وأن الإسلام أقر هذه السنة، وفرض على المسلمين أن يحجوا بيت الله الحرام ، وأن يطوفوا به، وأن يلمسوا الحجر الأسود . وأن يسعوا بين الصفا والمروة ، وأن يقفوا بجبل عرفات ، وأن يقيموا غير هذا وذاك من شعائر الحج التى تذكر بالله وبدين الله وبماضيه المجيد ؟

ثم ألا ترى أنه كان لليهود هيكل يحجونه ، فهدمه بختنصر حوالى سنة ٥٨٦ ق م ؟ فأقاموا على أنقاضه الهيكل الثانى الذى خربه طيطوس الرومانى سنة ٧٠ م ، وأن جـــدار المبكى لا يزال كما يعتقدون البقية الباقة من هذا الهيكل الثانى ؟

وكذلك ترى أن المسيحيين يتخذون من الصليب رمزاً لعقيدتهم ، ويحجون بيت المقدس ليذكروا الماضى من تاريخ دياناتهم .

وترى أيضاً مع هذا وذاك أن كل طائفة من طوائف المتصوفة تتخذ لها « بيرقا » أو علماً تجعله رمزاً مادياً خاصا بها، تلتف به وتحوطه عواطفها ، مثلها فى ذلك مثل اللواء الذى يلتف حوله الجند فى ساحة القتال ، ويدافعون عنه بكل ما لديهم من قوة ، والعلم الذى يحمله المدنيون ويتخذونه رمزاً للوطنية ، وينظرون إليه نظرة توقير واحترام .

إن هذا كله راجع إلى مبدأ نفسانى مقرر ، ذلك هو أن المثل الأعلى الذى يعتنقه الإنسان دينيا كان أو غير دينى — أمر معنوى بعيد المنال ، لا تدركه إلا النفوس السامية التى تصل إلى درجة السمو الروحانى : لذا كان

من الضرورى تقريبه إلى الأذهان بالرمز له بشيء مادى تدركه الحواس ، وتلتف حوله المشاعر السامية ، وتحوطه العواطف الراقية .

فلسنا نعجب إذن إذا سمعنا أن الزرادشتيين كانوا ينظرون إلى النار نظرة تقديس وتكريم . وأنهم كانوا يقيمون هياكل النار فى كل مكان ، وأنهم كانوا يعملون على استبقائها موقدة ، وأنهم كانوا إذا حزبهم أمر اجتمعوا فى هيكل النار ، وتضرعوا إلى أهورا مزدا أن يكشف عنهم الضر .

٨ — ورب قائل يقول أيضاً : إن الله تعالى يقول : إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئين والنصارى والمجوس والذين أشركوا إن الله يفصل بينهم يوم القيامة إن الله على كل شيء شهيد ،[١] وإن سياق الآية الكريمة يشعر باستنكار المجوسية ، وبأن المجوس كاليهود والصابئين والنصارى والمشركين — لم يكونوا يدينون دين الحق حين جاء الاسلام .

فأقول : إن المجوسية شيء والزرادشتية شيء آخر ؛ فالزرادشتية دين زرادشت الذى وصفناه ، أما المجوسية فدين فريق من الناس كانوا يمارسون السحر ويعبدون النار .

وقد يكون من المفيد هنا أن نقول إن كلمة مجوس لم ترد على لسان زرادشت ، ولم يرد لها ذكر فى أسفار الأبستاق القديمة ، ولم تذكر فى أسفار الأبستاق المتأخرة إلا مرة واحدة[٢] . وإنها لم تكن معروفة فى القسم الشرقى من إيران ، ذلك القسم الذى ظهرت فيه الزرادشتية وذاع أمرها ، وإنما كانت تستعمل فى القسم الغربى أى فى ميديا .

وقد أسفر البحث الحديث عن أن هذه الكلمة يرجح أن تكون سامية الأصل ؛ فهى بالآرامية مجوشا ، وبالعبرية مج ، وبالآشورية مج أو ماج .

---

(١) الحج : ١٧ . (٢) راجع ص ٣٠ من هذا الكتاب .

وأخذتها الإغريقية عن الآرامية فجعلتها مجوس Magos ، وأخذتها اللاتينية عن الإغريقية فجعلتها مجوس Magus، وهى فى اللغات الأوربية الحديثة ماجى Magi

ويظهر أن هذه الكلمة دخلت العربية قبل الإسلام ، ومن المرجح أنها نقلت إليها من السريانية التى هى لهجة آرامية . ومن الملاحظ أن صورة الكلمة كما هى فى العربية وهى مجوس أقرب إلى صورتها فى الإغريقية أو اللاتينية ، ولا نريد بهذا أن نقول إن الكلمة قد نقلت إلى العربية من الإغريقية مباشرة ، ولكن نريد أن نقول إنه من الجائز أن تكون الكلمة قد نقلت إلى العربية من الإغريقية عن طريق السريانية التى كانت أشد اللغات السامية اتصالا بالعربية قبل الإسلام ، وقد يؤيد هذا أن السريان اتصلوا بالإغريق وأخذوا عنهم شتى أنواع الثقافة ، واقتبسوا ـ تبعاً لذلك ـ من لغتهم الإغريقية كثيرا من الألفاظ والمصطلحات العلمية . فليس ببعيد أن تكون هذه الكلمة قد نقلت هى أيضا بصورتها الحالية من اليونانية إلى السريانية ، ثم نقلت من السريانية إلى العربية ، وشاعت هى ومدلولها بين العرب قبل الإسلام .

وإنما قلنا « بصورتها الحالية » لأن الكلمة ليست إغريقية الأصل ، وإنما هى سامية كما قلنا من قبل ، فلما نقلت عن إحدى اللغات السامية القديمة (الأشورية ، أو الآرامية ، أو العبرية) إلى الإغريقية أضافوا إلى آخرها السين المضموم ماقبلها ، وهذه علامة على أن الكلمة إغريقية الصيغة .

وإنى أرجح أن تكون هذه الكلمة قد نقلت إلى الأغريقية من العبرية ؛ ذلك لأن فورست يقول فى معجمه العبرى الإنجليزى إن لكلمة ماج العبرية علاقة بالكلمة السنسكريتية ماه ، وإن المعنى الأصلى الذى تفيده كل من الكلمتين العبرية والسنسكريتية هو حكيم أو عظيم . وإن كلمة ماج كانت تطلق على الكهنة لدى الأشوريين والميديين وقدماء الفرس ، ثم أطلقت

على عبدة النار على سبيل التجوز؛ لأنه قد غلب على هؤلاء الحكماء من الكهنة تعظيم النار .

وقد يؤيد ذلك ماروى عن هيردوت المؤرخ الإغريقى المشهور، وهو: أن ماجو كانوا السبط السادس من أسباط مادى الستة ، وكانوا حكماء . وكذلك ماقيل من أن كلمة مجوس أطلقت على السحرة وعبدة النار منذ القرن الثالث بعد الميلاد[1] .

من هذا نتبين خطأ الفيروزبادى فى معجمه الذى جاراه فيه الخفاجى فى شفاء الغليل وهو أن مجوسا رجل صغير الأذنين وضع دينا ودعا إليه، معرب منج كوش أى الصغير الأذن ، وكذلك خطأ ماقيل من أن محوس معرب موكوش أى شعرى الأذن، سمى المجوس بذلك لأنهم كانوا يرسلون شعور رؤوسهم إلى آذانهم . ويلحق بهذين الرأيين مانقل فى البحر وهو أن الميم فى مجوس بدل من النون، وأطلق ذلك عليهم لاستعمالهم النجاسات - فهو قول لايعول عليه كما قال العلامة الألوسى .

ويؤخذ مما ذكره الشهرستانى فى « الملل والنحل » أن كلمة « مجوس تطلق على كل من يعظم النار ، ويقول بوجود مبدأين هما : النور والظلمة . غير أن هؤلاء اختلفوا فى بيان هذين الأمرين ، وانقسموا إلى عدة فرق ، منها الفرقة الزرادشتية التى شرحنا منشأها وعقائدها .

وقد تأثر الألوسى بالشهرستانى فقال -عند تفسير الآية الكريمة السابق ذكرها : هم (أى المجوس) على ماروى عن قتادة قوم يعبدون الشمس والقمر والنيران ، واقتصر بعضهم على وصفهم بعبادة الشمس والقمر ، وآخرون على وصفهم بعبادة النيران ، وقيل هم قوم اعتزلوا النصارى ، ولبسوا

---

(١) راجع كتاب تفسير الألفاظ الدخيلة فى اللغة العربية لطوبيا العنيسى ص : ٦٨

المسوح . وقيل هم قوم أخذوا من دين النصارى شيئا ومن دين اليهود شيئا ، وهم قائلون بأن للعالم أصلين نورا وظلمة . وفى كتاب الملل والنحل مايدل على أنهم طوائف ، وأنهم كانوا قبل اليهود والنصارى، وأنهم يقولون بالشرائع على خلاف الصابئة ، وأن لهم شبهة كتاب ، وأنهم يعظمون النار .

هذه آراء مختلفة نقلها العلامة الألوسى فى مدلول كلمة مجوس . وإنى أرى فى ضوء ماتقدم ذكره : —

١ — أن تسمية عبدة الشمس والقمر أو غيرهما من الكواكب مجوسا يؤدى إلى إلحاقهم بالصابئة عبدة الكواكب . والقرآن الكريم يفرق بين الطائفتين فى الآية الكريمة المذكورة .

٢ — أن الوصف الأخير الذى نقله الألوسى عن الشهرستانى أكثر إنطباقا على الزرادشتيين ، فقد « كانوا قبل النصارى ، وقالوا بالشرائع ، وكانت لهم شبهة كتاب (الأبستاق ؟) وكانوا يعظمون النار . » أما أنهم كانوا قبل اليهود فأمر مشكوك فيه ، والراجح — كما يتبين مما ذكرناه — أنهم كانوا بعد اليهود .

٣ — أنى أرجح — والله أعلم — أن المراد بالمجوس المذكورين مرة واحدة فى القرآن الكريم فى تلك الآية الكريمة ليسوا هم الزرادشتيين، وإنما هم السحرة وعبدة النار، الذين سموا مجوساً منذ القرن الثالث بعد الميلاد.

على أننا إذا سلمنا جدلا بأن المراد بالمجوس فى الآية الكريمة هم الزرادشتيون أو فرقة منهم فإنه يسوغ لنا أن نقول إن القرآن الكريم يجعلهم من بين الكفرة كما يدل عليه سياق الآية الكريمة ؛ لأنهم لم يؤمنوا بالرسول عليه الصلاة والسلام ، ولم يدخلوا فى الإسلام ، بل ظلوا مستمسكين

بعقائدهم المشوهة المبدلة ، مثلهم فى ذلك مثل اليهود ، والصابئين والنصارى ، والمشركين الذين لم يسلموا وظلوا على عقائدهم القديمة الفاسدة أو المبدلة . أى أن القرآن الكريم جعل أتباع هذه الديانات الفاسدة أو المحرفة فى قرن مع المشركين ؛ لأنهم ظلوا مستمسكين بعقائدهم القديمة على ما فيها من تحريف أو تشويه ، ولم يدخلوا فى دين الله مثل إخوانهم فى الدين، الذين هجروا دياناتهم القديمة ، ودخلوا فى الإسلام يهودا كانوا أم صابئين أم نصارى أو مجوساً أو مشركين .

٩ — ولا يصح إنكار نبوة زرادشت أو رسالته على زعم أن اسمه لم يذكر فى القرآن الكريم بين سائر الأنبياء أو المرسلين ؛ فإن هذا مردود بقوله تعالى « ولقد أرسلنا رسلا من قبلك ، منهم من قصصنا عليك ، ومنهم من لم نقصص عليك » . وبقوله عز وجل : « وإن من أمة إلا خلا فيها نذير » وبأن بعض أنبياء بنى إسرائيل المتقدمين منهم والمتأخرين لم يذكروا فى القرآن الكريم بأسمائهم ، وإنما أشير إليهم بقوله تعالى « وقتلهم الأنبياء بغير حق » .

وربما تكون الآية الكريمة الثانية دليلا على أن زرادشت الحكيم كان نبياً أرسله الله إلى قدامى الإيرانيين ؛ ذلك لأن التاريخ لا يذكر نبياً آخر غير زرادشت أرسل إلى تلك الأمة أى قدامى الإيرانيين . فتصديقا لقوله تعالى : « وإن من أمة إلا خلا فيها نذير » . أرى أنه من الواجب أن نؤمن بأن زرادشت الحكيم كان نبى قدامى الإيرانيين ورسولا إليهم .

ولست فى رأيى هذا بدعا من مؤرخى الأديان فى الشرق والغرب ؛ فإن جميع مؤرخى الغرب يطلقون على زرادشت لقب النبى Prophet ، الذى قد يراد به الرسول أيضا . وهاهو ذا المسعودى يقول : وهو (أى زرادشت)

نبى المجوس. والشهرستانى يقول : ونشأ (أى زرادشت) بعد ذلك إلى أن بلغ ثلاثين سنة ، فبعثه الله نبيا ورسولا إلى الخلق .

والخلاصة أن جميع الدلائل التى بين أيدينا تفيد — أوعلى الأقل ترجح — أن زرادشت كان نبيا رسولا صادقا فى دعواه .

أما انتشار الزرادشتيه فى جميع أنحاء إيران ، وبقاؤها مزدهرة فى صورة ما فترة من الزمن تزيد على أحد عشر قرناً فحقيقة لا مجال للشك فيها .

الفصل السادس عشر

بين الزرادشتيه والمانوية

١ — الآن وقد انتهينا من الكلام على زرادشت والزرادشتية ، نرى من المناسب أن نعرض عوضا موجزاً مذهب مانى ، وما بينه وبين مذهب زرادشت من أوجه التشابه ، ذلك لما بين المذهبين من علاقة وثيقة ، ترجع إلى أن المانوية قد اتخذت من الزرادشتية أساسا من الأسس التى قامت عليها . كما سترى فيما بعد .

والمانوية كالزرادشتية من المذاهب الدينية أو الفلسفية الكثيرة التى كانت إيران منذ القدم مسرحا لنشاطها وانتشارها قبل الاسلام وبعده . فقد قام فيها قبل الإسلام : الخرمية ، والمزدكية ، والزروانية (الدهرية) . وظهر فيها بعد الاسلام كثير من الفرق والمذاهب التى تستند إلى الدين ، وفى مقدمتها المذاهب الشيعية المختلفة كالاثنى عشرية ، والسبعية وما تفرع منها ، مثل الإسماعيلية وفرقة الحشاشين ، وكذلك فرقة غلاة الشيعة الذين يسمون العلى إلاهيين ، ثم المسلمية ، والراوندية ، والمقنعية ، ثم البابية والبهائية .

وظهور هذه الفرق فى إيران سواء ما كان منها دينيا وما كان اجتماعيا ، وما كان هداما وما كان إصلاحيا — ظاهرة عجيبة تسترعى النظر . فالواقع أنك قلما تجد فرقة من الفرق التى تحدث عنها الشهرستانى فى الملل والنحل ، والبغدادى فى الفرق بين الفرق — إلا وتجد أن منشأها إيران .

ولعل هذا يرجع إلى عدة أسباب .

منها : نشاط العقلية الآرية بوجه عام ، وميلها إلى التحرر من القيود ، وشدة تعلقها بالبحث والتفلسف .

ومنها : تلك العقيدة الراسخة فى أذهان الإيرانيين بوجه خاص ، وهى: تمجيد الملكية تمجيداً أدى إلى اعتقادهم أن الملك أو الخليفة يستمد سلطته من الله .

ومنها : اعتزاز الإيرانيين بمجدهم السابق ، وبحضارتهم القديمة التى قضى عليها الإسلام فتراهم لذلك يحاولون من حين الى آخر أن يعيدوا مجدهم القديم ، وأن ينظروا فى كل جديد مستحدث من الديانات والمذاهب الاجتماعية الطارئة عليهم فى ضوء حضارتهم القديمة ، التى لا تنفك تخطر بأذهانهم ، ولا ينفكون ينظرون اليها نظرة إكبار وتقدير .

٢ — أعود فأقول إن هذه ظاهرة تسترعى النظر ، ولا يتسع المقام للتوسع فى شرحها . والبحث فى الأسباب التى أدت إليها . وإنما يعنينى فى هذا المقام أن أذكر أن ديانة زرادشت كانت من بين المصادر التى استقى منها مانى ديانته .

ويروى ابن النديم أن مانى هذا هو ابن فتق بن أبى برزام ؛ وأن أمه ميس كانت من نسل الأشكانيين ملوك الطوائف ، الذين كانت لهم السيطرة على إيران فيما بين سقوط الدولة الهاخمشية وظهور الدولة الساسانية . وأن أباه نشأ فى همدان عاصمة إكباتانا التى كانت أذربيجان مسقط رأس زرادشت إحدى مقاطعاتها ؛ ثم انتقل إلى بابل : وتنسك وتفرغ للتنسك فى بيت من بيوت الأصنام بمدينة طيسفون (المدائن) حيث ولد له ابنه مانى حوالى سنة ٢١٦ م .

٣ — ويزعم مانى أنه لما بلغ الرابعة والعشرين آتاه «التوم» ، ومعناه بالنبطية : القرين ، فقال له : قد حان أن تخرج فتذيع فى الناس أمرك ، كما يزعم أنه هو الفارقليط (المنقذ) الذى بشر به عيسى عليه السلام

وقد جول مانى أربعين سنة فى خراسان ، والهند ، والصين يدعو الناس إلى مذهبه ، وكان مزيجا من الزرادشتية والمسيحية .

ثم دخل على سابور بن أردشير فناقشه فى عقيدته ، فكبر فى عينيه ، ودخل فى دينه ، وأعلن أنه المذهب الرسمى للدولة فى يوم عيد جلوسه فى العشرين من أكتوبر سنة ٢٤٢ م .

وبعد ذلك بنحو عشر سنوات تبين لسابور فساد هذا المذهب فرجع عنه ، واستنكره ، وعاد إلى الزرادشتية ، وعقد العزم على أن يقتل مانى، ولكنه هرب إلى الهند .

وفى عهد بهرام بن هرمز بن سابور عاد مانى إلى إيران ، فاستدعاه بهرام وناقشه ، فظهر له فساد مذهبه فأمر بحبسه . وفى الغد أرسل فى طلبه فقيل إنه مات ، فأمر بهرام بجز رأسه ، وحشو جلده بالتبن ، وصلبه على باب مدينة جند يسابور ، ومن ثم سمى هذا الباب باب مانى .

ثم قتل من أتباعه عدداً عظيما [1] وفر فريق منهم وعبروا نهر بلخ ، ودخلوا بلاد الترك فيما وراء النهر . وظلوا هناك إلى أن فتح العرب فارس فعادوا ، وظهر أمرهم فى عصر الدولة الأموية فتعقبهم خالد بن عبد الله القسرى.

ثم ظهر أمرهم مرة أخرى فى عصر الدولة العباسية فرأى الخليفة محمد

---

(١) تاريخ اليعقوبى : ١—١٨٢ . والفهرست لابن النديم : ص ٤٧٢

المهدى (١٥٨ — ١٦٩ هـ) من الضرورى مطاردتهم ، فأنشأ لذلك منصب صاحب الزنادقة ، وكان ذلك سنة ١٦٧ هـ[1]

ويروى الطبرى[2] أن المهدى قال لموسى (ابنه) - وقد قدم إليه زنديق فاستتابه ، فأبى أن يتوب ، فضرب عنقه وأمر بصلبه - : « يابنى ! إن صار لك هذا الأمر فتجرد لهذه العصابة — يعنى أصحاب مانى — فإنها فرقة تدعو الناس إلى ظاهر حسن ؛ كاجتناب الفواحش ، والزهد فى الدنيا ، والعمل للآخرة ، ثم تخرجها إلى تحريم اللحم ومس الماء الطاهر ، وترك قتل الهوام تحرجا وتحويا ، ثم تخرجها من هذا إلى عبادة اثنين ، أحدهما : النور ، والآخر : الظلمة ، ثم تبيح بعد ذلك نكاح الأخوات والبنات ، والاغتسال بالبول ، وسرقة الأطفال من الطرق لتنقذهم من ضلال الظلمة إلى هداية النور . فارفع فيها الخشب وجرد فيها السيف ، وتقرب بأمرها إلى الله لا شريك له ، فإنى رأيت جدك العباس فى المنام قلدنى بسيفين ، وأمرنى بقتل أصحاب الاثنين . »

قال الطبرى : فقال موسى بعد أن مضت من أيامه عشرة أشهر : « أما والله لئن عشت لأقتلن هذه الفرقة كلها حتى لا أترك منها عينا تطرف . »

ويقال : إنه أمر أن يهيأ له ألف جذع (لصلب الزنادقة) ، ولكنه مات بعد شهرين قبل أن يقدر على البر بقسمه .

ويروى ابن النديم أنه كان ببغداد وحدها فى عصره (أواخر القرن الرابع الهجرى) حوالى ثلثمائة من المانويين ، ويذكر أن الجعد بن درهم كان من الزنادقة ؛ وهو الذى ينسب اليه مروان بن محمد (آخر خلفاء الدولة الأموية : (١٢٧ — ١٣٢ هـ) فيقال : مروان الجعدى . وكان مؤدباله ولولده فأدخله فى الزندقة . وقد أسر خالد بن عبد الله القسرى الجعد بن درهم فيمن

---

(١) تاريخ الطبرى : ١٠ — ٩ . وكتاب براون السابق ذكره : ١ — ١٥٩ .
(٢) جـ ١٠ ص ٤٢ من تاريخه .

أسر من الزنادقة . فلما ولى الخلافة هشام بن عبدالملك (١٠٥ — ١٢٥ ﻫ) تقدم إليه آل الجعد يشكون ضعفهم وسوء حالهم بعد طول حبس عائلهم ، فقال هشام : « أهو حى بعد ؟ » ، وكتب إلى خالد بقتله . فقتله يوم أضحى ، وجعل قتله تقربا إلى الله بدلا من ذبح الأضحية . وكان ذبحه إياه بعد أن أعلن ذلك على المنبر بأمر هشام .

وكان ممن اتهموا بالزندقة : بشار بن برد ، ومحمد بن عبيدالله كاتب المهدى ، وقد اعترف بذلك أمام المهدى فقتله . وكان من الزنادقة البرامكة جميعهم ماعدا محمد بن خالد بن برمك ، وكذلك كان منهم الفضل بن سهل وأخوه الحسن وزيرا المأمون ، وقيل كان منهم محمد بن عبد الملك الزيات وزير المعتصم .

٤ — وكان[1] مانى يقول بوجود كائن ثنائى الطبيعة ، وبوجود مبدأين أو كائنين يسيطران على العالم هما : مبدأ النور ، ومبدأ الظلام ؛ فالنور مصدر الخير ، والظلام منشأ الشر . ولكل منهما قدرة على إدراك اللون ، والطعم ، والرائحة ، والصوت ، والملامسة . ويستطيع كل منهما بهذه القدرة أن يرى ويدرك الأشياء .

وكل ما هو خير وجميل ونافع من الأشياء فهو صادر عن النور ، وكل ما هو ضار وقبيح ومفسد فهو ناشىء عن الظلام .

وكان هذان المبدآن فى أول الأمر منفصلين ، مستقلين ، متلاصقين ملاصقة الضوء للظل . وما داما منفصلين لم تحدث فى الكون حوادث ؛ فلم تنشأ الظواهر الطبيعية ، ولم توجد الكائنات الحية ، ولا الجمادات .

ثم امتزجا فنشأ عن امتزاجهما الكون بما فيه من ظواهر ، وحوادث ،

(١) راجع : قصة الأدب الفارسى للمؤلف : ص ٥٦ وما بعدها .

وأجسام كثيفة ، وكائنات حية . وكان الظلام هو البادىء بالامتزاج ؛ لأن النور خير بطبيعته فلا يبدأ الاعتداء .

وإنما قال مانى بوجود هذين المبدأين لأن الخير والشر ضدان لا يصدران عن شيء واحد ؛ ألا ترى أن النار لاتصدر عنها الحرارة والبرودة ، وأن الجسم البارد لاتنشأ عنه البرودة والحرارة ؟

وهذان المبدآن نشيطان فعالان إلى الأبد ؛ بدليل دوام صدور الخير عن أحدهما ، والشر عن الآخر .

٥ — وقد فرض مانى على أتباعه أربع صلوات أو سبعا كل يوم[١]، وصوم سبعة أيام كل شهر .

وأوجب عليهم عشر فرائض أخرى هى : —

(١) الإيمان بالمبادىء الأربعة العظيمة ، وهى : الله ، ونوره ، وقوته ، وحكمته . فالله جل اسمه هو : ملك جنات النور ، ونوره هو : الشمس والقمر ، وقوته تتمثل فى الأملاك الخمسة وهى : النسيم ، والريح ، والضوء ، والماء ، والنار . وحكمته هى الدين المقدس .

٢ — ترك عبادة الأصنام .

٣ — ترك الكذب .

٤ — ترك البخل .

٥ — ترك القتل .

٦ — ترك الزنا .

٧ — ترك السرقة .

٨ — تعلم العلل والسحر .

٩ — الشك فى الدين .

(١) تجد تفصيل هذه الفرائض فى الفهرست : ص ٤٦٥ — ٤٦٦ .

١٠ — التوانى فى العمل .

ويعترف مانى بأن بوذا وزرادشت كانا نبيين مرسلين ، ولا يعترف بأنبياء بنى إسرائيل . ويعترف بنبوة عيسى عليه السلام ، ويقول إنه جزء انفصل من عالم النور ، وتجسد تجسداً ظاهريا . أما الذى صلبه اليهود فهو عيسى المزيف ابن الأرملة ، ولم يكن عيسى الحقيق .

وكان المانويون خمس طبقات هم :—

ا — المعلمون ، وهم أبناء الحلم .

ب — المشمسون ، وهم أبناء العلم .

حـ — القديسون ، وهم أبناء العقل .

ى — الصديقون ، وهم أبناء الغيب .

هـ — السماعون ، وهم أبناء الفطنة .

وكانوا يعنون بتجويد الخط ، وقد ابتكروا لهم أبجديه خاصة .

٦ — وشاع فى إيران أن مانى كان نقاشا ماهراً ، ويعزى إليه أنه وضع كتاب صور سماه أرزهنك أو أرتنك ، وادعى أن هذا الكتاب هو معجزته التى تدل على مقدرته الخارقة للعادة ، وعلى أنه مرسل من عند الله .

وألف مانى ستة كتب رئيسة شرح فيها مذهبه الثنائى ، وبين فيها تعاليمه ، وهذه الكتب هى :

ا — كتاب « شابرقان » : وفيه يشرح حال النفس الناجية ، وحال النفس الشريرة ، التى تسيطر عليها الشياطين ، فتفسدها ، وتدنسها بالرذائل .

ب — كتاب « كنز الأحياء » : وفيه يشرح ما يصدر عن النور من صلاح النفس ، وما ينشأ عن الظلام من فسادها . وفيه أيضا يقرر أن السماء جرم مسطح ، وأن العالم بجبل يدور حول الفلك الأعلى .

حـ — كتاب « الهدى والتدبير »

كتاب « الفرائض » الاثنى عشرة السابق ذكرها : وفيه يعد حروف الهجاء واحداً واحدا ، ويبين خصائص كل منها ، ويصف الأدعية ، والصلوات ، ويذكر ما يجب أن يعمل لتحرير النفس .

هـ — « سفر الأسرار » . وفيه يطعن فى معجزات الأنبياء .

و — « سفر الجبابرة » .

ولمانى عدا هذه الكتب كتب ورسائل أخرى ذكرها ابن النديم[1] .

٧ — ويجدر بنا فى هذا المقام أن نبحث فى اشتقاق كلمة « زنديق » التى أطلقت - أول ما أطلقت - على مانى وأتباعه ، ثم شاع إطلاقها فيما بعد على كل مارق خارج عن الدين بوجه عام .

كان يظن أن كلمة « زنديق » فارسية الأصل معناها : المستمسك بالزند وهو شرح للأبستاق ، وتعليق عليه بالفارسية الفهلوية - كما قلنا من قبل نقلا عن المسعودى[٢] وأنها أطلقت على المانوية؛لسلوكهم مسلك التأويل فى شرح الكتب الزرادشتية المقدسة وغيرها بما يتفق وآراءهم .

وهذا هو المسلك نفسه الذى سلكته الطائفة الإسماعيلية الباطنية وغيرها من طوائف الشيعة ، الذين ادعوا أن للقرآن الكريم والتعاليم الإسلامية ظاهراً وباطنا . وأخذوا يؤولون القرآن بما يوافق مذهبهم .

ولكن براون[٢] ينقل عن بيفان رأياً آخر يعده أقرب إلى الصواب . وخلاصة هذا الرأى أنه كان من بين طبقات المانوية - كما قلنا من قبل - طبقة تسمى طبقة السماعين ، وهم طبقة الأحرار الذين لم يلزموا أنفسهم التمسك بتعاليم دينهم القاسية . التى تقضى بالزهد والتقشف والرهبنة ، وطبقة

---

(١) ص : ٤٧٠-٤٧١ من الفهرست .

(١) ص : ٦٥ من هذا الكتاب .

أخرى تسمى طبقة الصديقين ، أى المؤمنين المخلصين ، وهم الذين يأخذون أنفسهم بالرياضة النفسية ، ويؤثرون التقشف،والتجرد من الشهوات ، ونبذ العالم المادى ، ويوجبون على أنفسهم دوام الصيام ، والتصدق بقدر طاقتهم .

فكلمة صديق كلمة عربية ، وتستعمل فى العبرية بلفظها ومعناها ، وهى بالآرامية والسريانية زديق[٣] . ومن المؤكد الذى لا يتطرق إليه الشك أن الفارسية الفهلوية تأثرت بالآرامية ، فيرجح أن الفرس أخذوا هذه الكلمة فى صورتها الآرامية ، وحرفوها بعض التحريف فجعلوها زنديق ، وذلك بإبدال إحدى الدالين نونا ، وذلك كما فعلوا بكلمة شباث العبرية ؛ إذ أبدلوا إحدى الباءين نونا ، وأبدلوا الثاء الأخيرة ذالا ، وجعلوا الكلمة شنباذ وهى شنبه بالفارسية الحديثة . ومعناها : يوم السبت .

ثم أخذ العرب عن الفرس كلمة زنديق بعد أن كسروا زايها لتنسجم مع الدال المكسورة ، وجعلوها زنديق مثل : عربيد ، وتنين ، وقنديل .

فالكلمة على هذا الرأى سامية الأصل ؛ نقلت محرفة عن الآرامية إلى الفهلوية ، ثم أخذها العرب بصورتها المحرفة عن الفرس،وكسروا زايها لتعود إلى وزنها الأصلى .

وكانت تطلق فى عرف المانويين بمعناها الأصلى على المؤمن المخلص من أتباع مانى .

ولما كان الزرادشتيون يعدون هؤلاء ملحدين خارجين عن الزرادشتية

(٢) راجع كتابه السابق ذكره ص ١٥٩ — ١٦٠ .

(٣) كثيراً ما تقابل الزاى فى الآرامية والسريانية الصاد فى العبرية والعربية .

الحقة فقد أطلقت الكلمة عندهم على كل ملحد لا يؤمن بالدين الحق، وهذا هو المعنى الذى ظل يفهم منها فى العصور الاسلامية[1]

ويروى صاحب معاهد التنصيص رأياً آخر فى اشتقاق هذه الكلمة فيقول «والزنديق من الثنوية، أو القائل بالنور والظلمة، أو من لا يؤمن بالآخرة وبالربوبية، أو من يبطن الكفر ويظهر الإيمان، أوهو معرب زن دين، أى دين المرأة»[2].

وزن دين كلمتان، الأولى منهما (زن) فارسية، ومعناها: امرأة. والثانية (دين) عربية. ولعلها أطلقت على الملحدين استهزاء بهم وسخرية منهم. وهذا رأى ضعيف لما فيه من تكلف ظاهر.

٨ — الآن — وقد عرضنا العقائد والتعاليم المانوية عرضاً موجزا — يتبين لنا أن الزرادشتيين والمانويين يتفقون فى القول بمبــــدأى النور والظلام، ولكنهم يختلفون فى أمور تفصيلية جوهرية، منها:

ا — أن الزرادشتية ديانة توحيد فى أساسها — كما قلنا من قبل — أما المانوية فديانة ثنوية صريحة، إذ تقول بوجود كائن ثنائى الطبيعة. وهـذا يشبه رأى المسيحيين الذين يقولون بحلول اللاهوت بالناسوت فى شخص السيد المسيح عليه السـلام، مع بقائهما جوهرين مختلفين وهو مذهب النساطرة. أو الذين يقولون باندماج اللاهوت فى الناسوت أو اتحادهما فى شخص السيد المسيح بحيث يكونان طبيعة واحدة، وهو مذهب اليعاقبة.

ومن المحتمل أن يكون مانى قد استمد عقيدته من هذه العقيدة المسيحية.

ب — أن الزرادشتيين يرون أن كلا من عالم الخير وعالم الشر يتكون من مجموعتين من القوى، الأولى: مجموعة القوى المادية، والأخرى:

---

(١) راجع كتاب «فلسفة أبى العلاء» للمؤلف ص ١٦٦.
(٢) ج ١ — ص ٥٣.

مجموعة القوى الروحانية ؛ فمن الكائنات المادية ما هو خير نافع ؛ كأنواع الحيوان والنباتات النافعة للإنسان ، ومن يدينون دين الخير من بني الإنسان . ومنها ما هو شر كالحيوانات والنباتات المؤذية ، والسحرة والملحدين من بني الإنسان .

ومن القوى الروحانية ما هو خير كالملائكة ، وغيرهم من الكائنات الروحانية الخيرة ، ومنها ما هو شر كالشياطين .

أما المانويون فيرون أن الكائنات المادية كلها شر ؛ ذلك لاعتقادهم أن امتزاج النور بالظلام الذى نشأ عنه وجود الكائنات المادية والظواهر الطبيعية هو شر كله ، وأنه نتيجة لنشاط قوى الشر . وليس فى هذا العالم من خير ، إذا استثنينا أنه يتيح للنور فرصة التخلص من أغلال الظلام ، والعودة إلى حاله الأولى ، حيث كان قائماً بنفسه لا يخالط الظلام .

وحين يتم هذا التخلص تكف عن عملها الملائكة التى تقيم السموات وتمسك الأرض . ويكون فى ذلك القضاء على العالم المادى . وحينئذ تنشط الذرات النورانية من عقالها ، وتصعد إلى فردوس النور ـ مصدرها الأصلى ـ تحدوها الشمس ، ويسوقها القمر .

حـ ـ أن الزرادشتية على الرغم مما فيها من اتجاهات روحانية تغلب عليها الاتجاهات المادية ؛ فهى تشجع أتباعها على التناسل ، والتكاثر وملء الأرض ، وفلحها ، وزرعها ، وحصد غلاتها ، والعمل الدائم فى استغلالها . أما المانويون فيرون أن كل ما يساعد على إطالة أمد امتزاج النور بالظلام فهو شر كله ، وفى مقدمة ذلك : الزواج والتناسل ؛ ولذا كان من الواجب ـ فى رأيهم ـ أن يسلك الإنسان مسلك العزلة والرهبنة ، وأن يقطع دابر التناسل . وأن يعكف على التنسك والعبادة والدعوات والصلوات ؛ حتى يفنى العالم المادى ، ويتخلص النور من الظلام ، ويعرج إلى موطنه الأصلى

وهذا هو معنى قول هرمز فى مانى : « إن هذا الرجل قد جاء يدعو الناس إلى تدمير الكون » .

ى — أن الزرادشتية ديانة وطنية مادية استعمارية ؛ تدعو إلى الكفاح والصراع فى سبيل الحياة ، والتوسع فى فتح البلاد . أما المانوية فديانة عالمية استسلامية ، تقشفية ؛ تدعو إلى نبذ الدنيا ، واجتناب ما فيها من ملذات وشهوات .

هذه هى أهم الفروق الجوهرية بين الزرادشتية والمانوية ، ولا ريب أنك ترى أنها فروق ترجح كفة الزرادشتية ، وتجعلها أقوى وأشد مسايرة للطبيعة البشرية من المانوية ؛ فالطبيعة البشرية تأبى الاستسلام والذلة ، وتنفر من التقيد بقيود تحرمها الاستمتاع بما هو سائغ مقبول من ملذات الحياة ومباهجها .

ولعل هذا هو السبب فى تغلب الزرادشتية على المانوية ثم المزدكية ، وبقائها حية نشيطة إلى أن جاء الإسلام فقضى عليها وحل محلها .

الفصل السابع عشر

بين الزرادشتية والإسلام

١ — إن الله تعالى إذا أراد أمراً هيأ له الأسباب . وقد أراد سبحانه أن يظهر العرب على الفرس والروم ، وأن يظهر الإسلام على غيره من الأديان ؛ فهيأ لذلك الأسباب الكافية ، والظروف المواتية ؛ وذلك بأن أعد العرب فى جزيرتهم لممارسة فنون القتال فى حذق ومهارة ، بالتدريب عليها سنين طوالا فيما قام بين بعضهم وبعض من حروب متوالية ، لم يضع حداً لها إلا ظهور الرسول عليه السلام ، ودعوته العرب إلى نبذ الحروب ، واتحاد الكلمة .

ومن حكم الله البالغة أن جعل العرب ينظرون إلى قريش نظرة تقدير وتوقير ، وإلى لهجتها نظرة إكبار وإجلال حتى كانت اللهجة الرسمية ؛ تلقى بها الخطب ، وتنشد بها القصائد فى أسواق العرب فى الجاهلية ، وبخاصة المعلقات التى كان لها بينهم مكانة سامية وشأن رفيع .

٢ — وأرسل الله تعالى إلى الناس كافة رسولا عربيا ، اختاره من قريش صاحبة الغلبة على سائر القبائل العربية ؛ وأنزل عليه قرآنا عربيا شاعت فيه لهجة قريش التى كانت لها السيطرة على سائر اللهجات العربية .

وما إن أشرقت شمس الهداية الربانية بنزول الوحى على محمد بن عبدالله القرشى الأمين ، بذلك اللسان العربى المبين ، حتى شرع يدعو الناس إلى الدين الحنيف . وقد هداه ربه أن يسلك فى دعوته المسلك التدرجى الطبيعى . فكانت فى أول الأمر سرا ثم صارت جهرا . وكانت فى مبدئها مقصورة على

خاصة أصدقائه ثم شملت فيما بعد عشيرته الأقربين ثم انتقلت إلى غير هؤلاء من بطون قريش وهكذا . ولما تم انتشار الإسلام بالجزيرة العربية شرع الرسول عليه السلام فى دعوة الناس كافة إلى دينه الحنيف .

٣ ـ وعلى الرغم مما لاقاه هو وأصحابه من ألوان العذاب والاضطهاد ، والدس والمؤامرة ، والمقاطعة والمدابرة فقد سارت الدعوة الإسلامية فى طريقها موفقة مؤيدة بنصر الله ، حتى وصلت إلى غايتها ، فتوحدت كلمة العرب وانتقل الإسلام من مكة إلى المدينة ، فزال ما كان بين الأوس والخزرج من عداوة وبغضاء ؛ وتآخى المهاجرون والأنصار ، ثم أصبح العرب فى جميع أنحاء الجزيرة العربية أمة واحدة تتبع دينا واحدا ، وتعتنق عقيدة واحدة هى التوحيد الخالص من شوائب الشرك ، البرىء من أدران الوثنية ، وتعبد رباً واحداً هو الله سبحانه وتعالى ، الواحد الأحد ، الفرد الصمد ، الذى لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفوا أحد .

ولم يلحق الرسول صلوات الله عليه بالرفيق الأعلى إلا وقد طهرت جزيرة العرب من رجس الوثنية ، وتخلصت من العصبية القبلية ، ومن حمية الجاهلية .

وأقبل العرب بكل ما لديهم من حول وطول ينتشرون فى الأرض ، ينشرون الدين الحنيف بين الأمم والشعوب المجاورة لهم فى الشرق والغرب .

٤ ـ وفى عهد الخليفة الثانى عمر بن الخطاب رضى الله عنه تزلزت أركان النفوذ البيزنطى فى مصر والشام ، وانهارت الإمبراطورية الفارسية ، ودخل الفرس فى دين الله أفواجا .

ومن ثم دالت دولة الزرادشتية وما تفرع منها من نِحَل أيا كان نوعها ، وما زال نجم الإسلام يعلو ، وشأنه يسمو حتى صار الدين الرسمى فى البلاد التى فتحها المسلمون . ولم يبق فى فارس من الزرادشتيين إلا عدد قليل ،

ومن اختار منهم الاستمساك بدينه القديم هاجروا إلى الهند ، وظلوا بها أمدا طويلا يمارسون شعائرهم الدينية .

ولقد كان لظهور الإسلام على الزرادشتية والوثنية وغيرهما من الأديان التى كانت بجزيرة العرب عدة أسباب ، منها :

ا — ما يرجع إلى أحوال العرب والفرس والروم قبيل الإسلام . ومنها :

ب — ما يرجع إلى شخصية الرسول عليه السلام صاحب الدعوة الإسلامية . ومنها :

حـ — ما يرجع إلى القرآن الكريم معجزة الرسول . ومنها :

ء — ما يرجع إلى طبيعة الإسلام نفسه ، وما اشتمل عليه من عقائد وشرائع وآداب .

ا — أما العرب فقد كانت أحوالهم مضطربة لاختلاف نحلهم ومذاهبهم الدينية ، وشيوع العداوة والبغضاء بين أرباب هذه النحل والمذاهب . وقالت اليهود ليست النصارى على شىء ، وقالت النصارى ليست اليهود على شىء » « وقالت اليهود عزير ابن الله ، وقالت النصارى المسيح ابن الله » .

وظل الوثنيون فى عمايتهم وضلالهم يعبدون الحجارة وغيرها مما صنعت أيديهم ، ويتعصب كل فريق منهم لصنمه لا يصطفى غيره .

ولم يكن كل من اليهود والنصارى والمشركين متحدى العقيدة ، بل اختلف كل فريق منهم اختلافا كبيرا ، وكانت كل فرقة تعتد بآرائها وحدها ، وتستهزىء بآراء غيرها ، ولذا كانت العداوة مستحكمة بين طوائف النصارى وبين الوثنيين أنفسهم ، وكانت الجزيرة العربية مسرحاً لحروب متوالية ، ومجازر بشرية تشمئز منها النفوس ، ويأباها الضمير الإنسانى . وأيام العرب فى جاهليتهم من أوضح الأدلة على ذلك .

وبينما كان سكان البادية فى نضال وتنازع كان سكان الحضر ينغمسون فى اللذات ، ويندفعون فى طريق الشهوات ، وبخاصة أهل مكة التى كانت مباءة فسق وفجور . ذلك أن القوافل التى كانت تحمل إليها البضائع النافعة كانت فى الوقت نفسه تجلب إليها من العراق وبلاد الشام الخمور والرقيق والجوارى البيض ، فيهيم بهن أغنياء مكة ، ويفتتن بهن شبابها ، ويصبحن وسائل للضلال ، وأسباباً للتحاسد والتباغض . وقد عرف أهل مكة أيضاً بشرب الخمور ولعب الميسر ، وعقد الاجتماعات لسماع القيان يغنين ، ورؤيتهن يرقصن .

وكان من عادات العـــرب المقوتة فى الجاهلية وأد البنات ، وتعدد الزوجات دون قيد ولا شرط . وكان من تقاليدهم أن تورث المرأة كما تورث الأمتعة والعقارات فتصبح ملكا للوارث يتصرف فيها كما يشاء إن لم تكن أمه .

ولم تكن حال العرب السياسية بأقل اضطرابا من الحالين الدينية والاجتماعية ، ذلك أن اختلاف القبائل وتعدد المذاهب قد أدى إلى تفكك القومية العربية، وفصم عرى الوحدة الشعبية ؛ فكانت أطراف الجزيرة لقمة سائغة فى أفواه المغيرين من الأجانب ، فقوى سلطان الأكاسرة فى الحيرة وماحولها ، وظهر نفوذ القياصرة فى الشام وبلاد الغساسنة ، ودخل الأحباش ثم الفرس بلاد اليمن .

وكان هؤلاء الأجانب يَسْتَعْدُون أنصارهم من العرب على أعدائهم من العرب أيضاً ؛ فكان العربى يعادى أخاه العربى ويقاتله ، ويسفك دمه — لا لسبب سوى الانتصار لسادته من الأجانب .

وأما الإمبراطورية الرومانية فلم تكن أسعد حظاً من البلاد العربية فقد شملها الاضطراب السياسى ، وعمتها الفوضى الدينية ، وفشا فيها الانحلال

الاجتماعي ، وبخاصة بعد أن انقسمت سنة ٣٩٥ م إلى إمبراطورية غربية عاصمتها رومية ، وإمبراطورية شرقية عاصمتها بيزنطة (القسطنطينية) . وقد أدى تنازع الأحزاب السياسية والفرق الدينية ، واختلاف الأمراء وتدخل الأجانب فى شئون الحكم ، وكثرة إغارات البرابرة — إلى زوال الإمبراطورية الغربية وسقوطها فى أيدى المغيرين سنة ٤٧٦ م فلم تعمر إلا إحدى وثمانين سنة .

وكان من أسباب ضعف الإمبراطورية الشرقية كثرة الفرق الدينية كثرة أدت إلى عقد عدة مجامع لتحرير العقيدة المسيحية ، والفصل فى الخارجين على المذهب الملكى الرسمى ، ومع ذلك لم تحسم الخلافات ، ولم تنته المنازعات بل طغت الفرق بعضها على بعض وتحيز كل لعقيدته .

استمع إلى ويلز المؤرخ الإنجليزى المعروف يقول فى هذا الموضوع :

« لم تكن هذه الخلافات والمنازعات الدينية إلا مظاهر لانفجار العقل البشرى ، وغليان الدم الإنسانى . ولم تكن تلك الآراء المستحدثة لتتفق وتعاليم المسيح الأولى المسطورة فى الكتاب المقدس . وقد بالغ المسيحيون الأولون فى تعصبهم لمذاهبهم حتى صارت العقيدة تباع وتشترى . وكان من يعتنق عقيدة ما تروج تجارته ، ويحصل على رغباته ، وما يحتاج إليه من معونة » .

« وإن من يقرأ ما وصل إلينا مما كتبه هؤلاء الأقدمون فى الدفاع عن مذاهبهم يكاد يلمس الأحقاد والاستبداد فى إبداء الرأى ، والتلاعب بالألفاظ فى الجدل والمناقشة ومحض التنافس الممتزج بالغيرة والحسد . والحق أن هؤلاء قد مزقوا الديانة المسيحية الأولى شر ممزق وقطعوها إربا إربا ، وذهبوا بها ضحية لذلك التنافس المذهبى القديم العديم الجدوى » .

ثم استمع إلى هذا المؤرخ نفسه يقول فى بيان حال الإمبراطورية الرومانية ما خلاصته : —

« لقد حل الدمار بالإمبراطورية الرومانية ، وساءت أحوالها السياسية والاقتصادية ، وكانت حضارتها قائمة على أكتاف الفقراء ، الذين كانوا يعملون لحساب الأغنياء ، فكانت فى ظاهرها عظيمة فخمة ، ولكنها كانت فى باطنها مليئة بالقسوة ، والغباء ، والجهل ، والجحود » .

وفى الموضوع نفسه يقول المرحوم سيد أمير على الهندى ماخلاصته :

« لقد ساءت الأحوال الاجتماعية والسياسية فى جميع أنحاء الممالك الخاضعة للمسيحية ؛ فقد حال النظام القائم فى تلك الأنحاء دون حرية التفكير ، وحرية الحكم على الأعمال . ولم يتورع أتباع المسيح الخاضعون لسلطانه أن يشوهوا وجه العصر ، ويجعلوه عصر اضطهاد وإرهاق للأرواح ، وذبح كل ثائر أو خارج على الكنيسة الرسمية ، وكل من تحدثه نفسه بمخالفة الرأى الدينى السائد فى ذلك العصر . »

وأما الإمبراطورية الفارسية فلم تكن أحسن حالا من جاراتها قبيل البعثة المحمدية ؛ فقد كانت فى حروب دامية دائمة داخلية أو خارجية ، وكانت تنافس الإمبراطورية الرومانية فى امتلاك آسيا ، والسيطرة على سكانها . وكثيراً ما كان مقدسو النار يهزمون عبدة المسيح ، وينهبون أموالهم ، ويأسرون منهم الأسرى ، ويحملونهم إلى بلادهم ، ومن بينهم بعض القياصرة . وأحيانا كانت الدائرة تدور على الفرس ، فيغلبهم الروم ، ويقتلون منهم ويأسرون ، ويخربون ديارهم ، ويضمون أملاكهم إلى أملاك دولتهم . وهكذا كان الأكاسرة والقياصرة فى نزاع دائم لا يكفون عن القتال إلا قليلا .

وكان المجوس من الفرس لا يعبدون الإله الحق ، ولم تتمكن الأخلاق

الفاضلة فى نفوسهم . وكان الأكاسرة من عهد أردشير يضطهدون الفرق الدينية الذين كانوا يعتنقون مذاهب غير مذهبهم ، وكانوا يطاردونهم ويلحقون بهم الأذى . . .

وقبيل البعثة المحمدية حدثت بفارس اضطرابات وفتن داخلية ، وتنافس على العرش عدة من الأكاسرة ، فكان الواحد منهم يولى ثم يعزل بعد مدة قصيرة ، ومن المعروف أن ستة منهم تولوا العرش فى أشهر قلائل ، وكان ذلك لتدخل الجنود ورجال الحرس الإمبراطورى الذين أطلقوا أيديهم ، وكانوا أصحاب التصرف المطلق فى شئون الدولة ؛ فكانوا هم الذين يولون الأكاسرة ويعزلونهم كما يشاءون . بل لقد سمحت لهم ضمائرهم أن يعملوا السيف فيهم ، ويقتلوهم جهارا ، دون أن يأبهوا بوازع نفسى ، ولا بمعارض خارجى ، وبذلك سقطت هيبة الملك ، وتدهورت قيمة العرش ، وعمت الفوضى ، وانتشر الفساد .

هكذا كانت أحوال العالم المتمدين قبيل البعثة المحمدية ، وهى كما رأيت أحوال كانت تتطلب الإنقاذ السريع والعلاج الحاسم ، كما كانت فى الوقت نفسه أول أسباب انتشار الإسلام .

ب — أما السبب الثانى فهو قوة شخصية الرسول محمد بن عبد الله صاحب الدعوة المحمدية . ومحمد بن عبدالله شخصية تاريخية لا يجرؤ أحد أن ينكرها، ولا أن ينكر ما وصف به صلوات الله وسلامه عليه من الأخلاق السامية والفضائل الرفيعة ، التى جعلت له بين قومه وعشيرته منزلة مرموقة من قبل بعثته ومن بعدها ؛ فقد كان يوصف وهو فى ريعان شبابه بالأمين ، وقد سلك فى حياته بعد بعثته مسلكا خلقياً مرضياً جعله قدوة حسنة لأصحابه . وحسبه شرفا أن يصفه ربه فيقول تعالى : « وإنك لعلى خلق عظيم » ،

ويقول سبحانه : « لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيراً . » ويقول عز وجل : « ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك . » ويقول تباركت أسماؤه : « محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار ، رحماء بينهم ، تراهم ركعاً سجداً، يبتغون فضلا من الله ورضوانا ، سيماهم فى وجوههم من أثر السجود . ذلك مثلهم فى التوراة ، ومثلهم فى الإنجيل كزرع أخرج شطأه ، فآزره فاستغلظ ، فاستوى على سوقه ، يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار . »

فأين من هذه الشخصية شخصية زرادشت ؟

حـ — وأما السبب الثالث . فهو القرآن الكريم معجزة الرسول الخالدة ، الذى أعجز العرب بفصاحته ، وأدهشهم ببلاغته ، وأثر فى نفوسهم بحلاوته وطلاوته ، ذلك الكتاب الحكيم الذى كان ينزل على الرسول الكريم ، بلسان عربى مبين ، آيات بينات تخرج الناس من الظلمات إلى النور ، وتثبت إيمان المؤمنين ، وتلقى الروع فى قلوب المشركين ، وتبصر المتقين بأمور معاشهم ومعادهم ، وتهديهم الصراط المستقيم ، الذى يحظون باتباعه بالسعادة فى الدنيا والآخرة .

فأين من هذا القرآن العظيم الأبستاق كتاب زرادشت المقدس .

ء — وأما السبب الرابع : فهو طبيعة الإسلام نفسه ، وما اشتمل عليه من عقائد سليمة ، وشرائع حكيمة ، وأخلاق قويمة ، تكفل إصلاح النفوس ، ورقى المجتمع البشرى ، وسعادة الناس فى حياتهم وبعد مماتهم .

وكان أول مقاصد الإسلام أن يصحح عقيدة الناس ، ويقوى إيمانهم بالله ، ويصلح باطنهم ، ذلك لأنه إذا صلح باطنهم صلح ظاهرهم ، وثبتت أقدامهم فى ميادين القتال ، وقوى جنانهم فى مقام الجدل والدفاع عن الدين .

والعقيدة التى أتى بها الإسلام هى عقيدة التوحيد الصريح ، الخالى من شوائب الشرك . البرىء من أدران الوثنية على اختلاف صورها . وكلمة التوحيد وهى : « لا إله إلا الله » تصور هذا المعنى فى سهولة وبساطة ؛ فليس فى الكون إله غير الله ، الواحد الأحد ، الفاعل المختار ، المتصرف فى شئون جميع الكائنات ، المتصف بجميع صفات الكمال ، المنزه عن جميع صفات النقص ؛ لا شريك له ولا ند ، ولا مثيل ولا نظير .

ولئن اختلف الباحثون فى العقيدة الإلهية الزرادشتية أثنائية كانت أم توحيدية ؛ إنهم لم يختلفوا فى أن العقيدة التى أتى بها محمد بن عبد الله هى عقيدة التوحيد التى تقوم على الإقرار بوجود الله ، وبوحدانيته ، ونبذ الأصنام وعبادتها ، تلك العقيدة التى نادى بها الرسول ، وألح فى المناداة بها منذ اللحظة الأولى من حياة رسالته ، وتكرر ذكرها والدعوة إلى اعتناقها والبرهنة على صحتها فى أوليات السور المكية ؛ فى هذه السور كثير من الآيات التى تبرهن على وحدانية الله ، وعلى عموم قدرته ، وتلفت الأنظار إلى عجائب المخلوقات فى الأرض والسموات ، وتدعو إلى التفكير فيها وفى منشئها ومصيرها .

ولا يقف الإسلام عند هذا الحد ، بل إنه يحوط هذه العقيدة بفرض العبادات الواضحة المعالم ، المحددة الغايات ؛ وهى الصلوات ، والصوم ، والزكاة ، والحج . ومن شأن هذه العبادات أن تهذب النفس البشرية ، وتقوم الشخصية الفردية بتعويد الإنسان الصبر وضبط النفس ، والاعتماد على الله ، والثقة به وحده .

نعم إن الزرادشتية تفرض بعض الأمور التعبدية كالصلاة والصوم ، ولكن هذه لم تصل فى الإحكام والإتقان والوضوح إلى ما وصلت إليه العبادات التى يفرضها الإسلام .

والإسلام لا ينكر على الفرد حريته وكرامته الشخصية ، بل إنه منحه حرية التصرف فى أمواله وجميع شئونه الخاصة ، بعد أن يؤدى الواجب عليه نحو الفقراء والمساكين ، ونحو الوطن الذى يعيش فيه .

وقد منح المرأة حرية ما كانت تحلم بها من قبل ، فرفع منزلتها الاجتماعية ، وجعل لها ما للرجل من حقوق ، وعليها ما عليه من واجبات وتكاليف شرعية ، إلا حيث تقتضى الحكمة التفرقة بينهما .

ووضع القوانين وسن الشرائع التى من شأنها أن تسهل عتق الأرقاء ، وتمهد لهم سبل الخروج من ربقة الاستعباد وذل الاسترقاق ، إلى نعيم الحرية والمساواة والإخاء .

فهل لهذه التشريعات الحكيمة نظائر فى الزرادشتية ؟

وقد وضع الشارع الحكيم القوانين الكفيلة بتنظيم الحياة المنزلية ؛ لتحسن العلاقة بين الزوجين وبين الآباء والأبناء ، وبين المخدوم والخادم ، ويؤدى كل ما عليه من واجبات ، ويستمتع بماله من حقوق .

ولست أدرى أن فى الزرادشتية مثل هذا التشريع . اللهم إلا بعض إشارات إجمالية مبهمة تتعلق بالحياة المنزلية .

كذلك وضع الإسلام قوانين شتى لتنظيم الحياة الاجتماعية العامة ، وإقامة العلاقات بين الناس ، ومعاملة بعضهم لبعض على أسس من العطف والتراحم ، والأمانة والصدق ، والإخاء والمساواة ، والعدل والتعاون ، وحسن الجوار والوفاء بالعهد — وغير هذه من الأخلاق الحميدة التى تؤدى إلى التآلف والاتحاد .

فكر فى قوله تعالى : « إليه يصعد الكلم الطيب ، والعمل الصالح يرفعه

والذين يمكرون السيئات لهم عذاب شديد، ومكر أولئك هو يبور».
تجد أنه يشتمل — فى أسلوب طلى رقيق — على الجواهر الثلاثة التى نادت بها الزرادشتية، وهى: القول الحسن، والعمل الصالح، والفكر الطيب، الذى أشار إليه سبحانه بقوله: «والذين يمكرون السيئات لهم عذاب شديد». فكر السيئات هو التفكير الخبيث الذى ينافى التفكير الطيب.

ومن مقاصد الإسلام السامية تقوية الأمة تقوية مادية؛ كى تستعد للطوارىء: وتستطيع المحافظة على كرامتها، وتعظم هيبتها فلا يطمع فيها أعداؤها؛ فالله تعالى يقول: وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم، وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم». ويقول: يأيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا، واتقوا الله لعلكم تفلحون» والرسول صلوات الله وسلامه عليه يقول: «المؤمن القوى خير وأفضل عند الله من المؤمن الضعيف».

وقد نظم الشارع العلاقة بين الحاكمين والمحكومين؛ فأوجب على الحكام العدل، وعلى المحكومين الطاعة لينتشر الأمن ويسود السلام.

ولم يؤثر عن الزرادشتية شىء مثل هذا أو ذاك فى صورة واضحة.

وقد حرم الإسلام تحريما صريحا قاطعا الخبائث التى دل التاريخ، وأثبتت التجارب والمشاهدات أنها تؤدى إلى فساد الجسم والعقل، وإضعاف النسل، أو إلى إيقاع العداوة والبغضاء بين الناس، وتقضى على ما يجب أن يكون بينهم من ألفة ومحبة، وذلك كالاعتداء على الأرواح والأموال والأعراض، والربا، وشرب الخمر، والميسر.

وليتم التعاون بين الحاكمين والمحكومين، ويكون على الأمة رقباء منها دعا الشارع الحكيم إلى الأمر بالمعروف، والنهى عن المنكر. ونعى على بنى

إسرائيل عدم تناهيهم عن المنكر . فقال : « كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه ، لبئس ما كانوا يفعلون » . وقال : « لولا ينهاهم الربانيون والأحبار عن قولهم الإثم ، وأكلهم السحت ! لبئس ما كانوا يصنعون » .

والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر من مبادىء الزرادشتية ـ كما يقول الشهرستانى[1] .

وقد علم الله سبحانه وتعالى أن أداء الواجبات الدينية والدنيوية لا يتم على الوجه الأكمل إلا بصحة البدن وسلامة العقل ، فأوجب على الناس المحافظة على أرواحهم ، وعلى سلامة أجسامهم ، وأباح لهم الاستمتاع بالطيبات من الرزق من مأكل ومشرب وملبس ، فى غير إسراف ولا تقتير ، ودعاهم إلى تدريب عقولهم بالتفكير فى أنفسهم ، والنظر فى ملكوت السموات والأرض ، وحثهم على التبصر والتدبر كى تتسع مداركهم ، ويستطيعوا فهم العقيدة والتعاليم الإسلامية على وجهها الصحيح ، ويثبتوا أمام المعاندين المكابرين ، إذا احتدم النزاع واشتدت الخصومة ، واضطروا للمجادلة والمحاجة .

ويخطىء من يدعى أن الإسلام دين لجاجة وخصومة ، وعداء واعتداء : تأبى روحه روح مسالمة وإصلاح بين المتخاصمين ، وجنوح إلى السلم إذا لم يترتب عليه ضرر للأمة ولا إضعاف لهيبتها ، أو إهدار لكرامتها ، ولا تعطيل للدعوة الإسلامية .

والله تعالى يقول : وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا ، وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما . ويقول : وإذا مروا باللغو مروا كراما

---

(١) راجع ص ٨٢ من هذا الكتاب .

ويقول : فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم . ويقول : وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما ، فإن بغت إحداهما على الآخرى فقاتلوا التى تبغى حتى تفىء إلى أمر الله . فإن فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل ، وأقسطوا إن الله يحب المقسطين. إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم » . ويقول : « وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله » .

وجدير بالذكر أن آيات القرآن الخاصة بالقتال ليس فيها أمر بالقتل اعتداء . وإنما فيها أمر بالقتال للدفاع عن النفس . فمن ذلك قوله تعالى : « يأيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار ، وليجدوا فيكم غلظة . وقوله : « وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة » .

وقد وضع سبحانه لذلك قاعدة عامة حيث قال : « فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم » .

والله تعالى يعلم أن النزاع بين الناس يقوم فى الكثير الغالب على المطامع الشهوانية والرغبات المادية ، والتطلع إلى الجاه والمناصب ، وأن المسالمة لا تتم إلا بالزهد فى الدنيا وحطامها الزائف الزائل ، ومراعاة جانب العفة والقناعه التى هى منشأ السعادة النفسية . لذا نراه جل شأنه يرغب فى العمل للآخرة أكثر مما يرغب فى العمل للدنيا ، ويدعو إلى ضبط النفس وكبح جماحها ؛ حتى لا تستسلم لشهواتها ، ولا تخضع لرغباتها . وفى ذلك يقول سبحانه : « اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو ، وزينة وتفاخر بينكم ، وتكاثر فى الأموال والأولاد ـ كمثل غيث أعجب الكفار نباته ، ثم يهيج فتراه مصفرا ، ثم يكون حطاما وفى الآخرة عذاب شديد ، ومغفرة من الله ورضوان ، وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور » . ويقول : « فأما من طغى وآثر الحياة الدنيا فإن الجحيم

هى المأوى . وأما من خاف مقام ربه ، ونهى النفس عن الهوى فإن الجنة هى المأوى » .

* * *

هذه وغيرها مما لا يتسع المقام لذكره هى تعاليم الإسلام الرشيدة ، وتقاليده الحكيمة التى إذا اتبعها الناس مؤمنين بها ، مخلصين لها شاع بينهم الحب والإخاء ، والتعاون والوفاء ، وذهب عنهم الحقد والحسد ، والعداوة والبغضاء ، وعاشوا عيشة سعادة وأمن ورخاء .

وهذه فى مجموعها وجملتها وتفصيلها هى التى جعلت الإسلام دين سلام وأمن ، وأخوة ومساواة وعدل ، وكانت — فى الوقت نفسه — فى مقدمة الأسباب التى دعت إلى ظهور المسلمين على غيرهم من الأمم ، وظهور الإسلام على غيره من الأديان .

وصدق الله تعالى حيث يقول : هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ؛ ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون .

ولله الأمر من قبل ومن بعد ؟

تم بعون الله

فى القاهرة { رمضان سنة ١٣٧٥ هـ
أبريل سنة ١٩٥٦ م

فهرس الكتاب

استدراك

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
٢٥	٩	أبيه	أمه

مؤلفات الجمعية الثقافية المصرية :

تقدم بالإشتراك مع دار نهضة مصر للطباعة والنشر بالقاهرة

(١) سلسلة حياة المجتمعات :

قصة الملكية فى العالم — للدكتور على عبد الواحد وحسن سعفان

قصة الزواج والعزوبية فى العالم — « على عبد الواحد وافى

(٢) سلسلة قادة الفكر فى الشرق والغرب :

كونفوشيوس — للدكتور حسن سعفان

زرادشت الحكيم — للأستاذ حامد عبد القادر

بوذا الأكبر — « حامد عبد القادر

(٣) سلسلة المذاهب الادبية الكبرى :

الرومانتيكية ، الكلاسكية ، الرمزية ، الواقعية ، الوجودية ، السريالية

(٤) سلسلة الادب والنقد :

الفكاهة فى الأدب العربى — للدكتور أحمد الحوفى

الأدب السورى المعاصر — للسيدة وداد سكاكينى

وهى مطبوعة طباعة أنيقة وإخراج جديد بسعر ١٥٠ مليما للنسخة

مطبعة نهضة مصر بالفجالة
القاهرة